كتاب بيداغوجي بعنوان

دراسات المؤسسة في علم الاجتماع

موجهة الى طلبة علم الاجتماع

تأليف الدكتور معمري محمد

الموسم الجامعي 2025

دراسات المؤسسة في علم الاجتماع

دراسات المؤسسة في علم الاجتماع

يمثل هذا الكتاب مساهمة علمية رصينة في سوسيولوجيا المؤسسات، حيث يسبر أغوار التحولات الاجتماعية من خلال مقاربات نظرية وميدانية متكاملة. ينطلق من إرث مدرسة شيكاغو، متتبعًا تطور علم الاجتماع الحضري والإيكولوجي، ثم ينتقل عبر محطات كلاسيكية مع أعلام السوسيولوجيا أمثال دوركايم، ماركس، وفيبر، ليستعرض التفاعل الجدلي بين الفعل والبنية الاجتماعية.

يجمع هذا العمل بين التحليل النظري العميق والدراسة الميدانية الثرية، مستعرضًا قضايا الهجرة، الهوية، الطبقات الاجتماعية، وثقافة الفقر من خلال دراسات حالة بارزة مثل "الفلاح البولندي"، "ميدلتاون"، و"الجندي الأمريكي". كما يُسلط الضوء على إسهامات رواد البحث الميداني كإرفينغ غوفمان وهوارد بيكر، موفّرًا قراءة متعددة الزوايا للتغيرات البنيوية والرمزية في المجتمعات الحديثة.

هذا الكتاب مرجع أساسي للباحثين والطلبة في علم الاجتماع، إذ لا يكتفي بعرض النظريات بل يربطها بواقع اجتماعي نابض، داعيًا إلى فهم أعمق للواقع المؤسسي بوصفه نتاجًا مركبًا لتفاعلات الفاعلين والسياقات التاريخية والاجتماعية المتغيرة.

كلمة الباحث

حين بدأت هذا المشروع، لم أكن أبحث عن مجرد إنجاز أكاديمي يضاف إلى قائمة الإنتاجات العلمية، بل كنت أبحث عن إجابة حقيقية لسؤال ظلّ يلازمني :كيف نفهم الإنسان في مجاله الاجتماعي؟ كيف نقرأ سلوك الجماعة لا من خلال ما يقال عنها، بل من خلال ما تُنتجه يوميًا من أنساق ومعاني وتمثلات؟

جاء هذا الكتاب نتيجة سنوات من التأمل والبحث والتدريس، تخللها احتكاك مباشر مع الطلبة، ومواكبة مستمرة للمدارس السوسيولوجية الكلاسيكية والمعاصرة، وإيمان بأن علم الاجتماع ليس فقط علما وصفيا بل هو مشروع فكري لتفكيك المعاني وإعادة صياغة العالم الذي نعيش فيه.

لقد حرصت على أن يكون هذا العمل مرآة للعمق لا للكم، وللأصالة لا للتكرار، وللحضور السوسيولوجي الفعّال في قلب التغيرات المجتمعية المتسارعة، وقد جاء هذا التوجه في تأصيل المفاهيم وتوسيع الرؤية، من منطلق أن الطالب الجامعي ليس بحاجة إلى ملخصات سطحية، بل إلى خطاب يوقظ فيه الفضول العلمي، والشك المعرفي، والنقد الخلّاق.

أهدي هذا العمل إلى كل طالب وطالبة يشعرون أن السوسيولوجيا ليست مادة أكاديمية فحسب، بل أسلوب تفكير، وموقف من العالم، وأداة لتغيير الذات والمجتمع.

الفهرس

مقدمة الكتاب.....10

الفصل الأول: مدرسة شيكاغو: التأسيس والنظريات السوسيولوجية الكبرى.....11

القسم الأول :إسهامات مدرسة شيكاغو في بناء علم الاجتماع.....11

1. إسهامات مدرسة شيكاغو في بناء علم الاجتماع الحديث.....11

2. تأثير مدرسة شيكاغو على التيارات السوسيولوجية الحديثة.....11

3. مدرسة شيكاغو: مسار عمل وتفكير مبتكر.....12

4. منهجية شيكاغو: الفرد كفاعل محوري في التغيير الاجتماعي.....12

5. التجديد المستمر: رؤية مدرسة شيكاغو في البحث السوسيولوجي.....13

6. المنهج الكيفي: الغوص في التفاصيل الاجتماعية.....13

القسم الثاني :المدينة والتحضر: من الهامش إلى المركز السوسيولوجي.....14

1. المدينة كظاهرة اجتماعية: دراسة سوسيولوجية معمقة.....14

2. التحضر والرأسمالية: العلاقة المعقدة والتأثيرات المتبادلة.....14

3. منهج البحث الحضري: أدوات وتحليلات سوسيولوجية جديدة.....15

4. العوامل الاقتصادية والاجتماعية: محركات التحولات الحضرية.....15

5. لويس ويرث: سوسيولوجيا التحول الاجتماعي في الحضر.....16

الفصل الثاني :المدرسة الإيكولوجية الحضرية: التفاعل بين البيئة والمجتمع.....18

القسم الأول :المدينة كنظام بيئي: رؤية روبرت بارك الإيكولوجية.....18

1. المدينة كنظام بيئي: رؤية روبرت بارك الإيكولوجية.....18

2. الاتجاه الإيكولوجي: علم الاجتماع الحضري في سياق البيئة.....18

3. نشأة وتطور مدرسة شيكاغو: تطور البحث في علم الاجتماع الحضري 21
4. مدرسة شيكاغو: مدرسة لتوجهات سوسيولوجية جديدة 21
5. الإيكولوجيا الحضرية: مقاربات تحليلية مبتكرة للمجال 22
6. روبرت بارك: بناء المنظور الإيكولوجي في علم الاجتماع 25
7. استنتاجات سوسيولوجية: درس من مدرسة شيكاغو 26
الفصل الثالث :من دوركايم إلى ماركس وفيبر: جدلية الفعل والبنية الاجتماعية 27
القسم الأول: إميل دوركايم: مؤسس علم الاجتماع الحديث 27
1. إميل دوركايم: حياة ومسار علمي 27
2. التضامن الاجتماعي: بين الآلي والعضوي 28
3. التحليل الدوركايمي: الفهم السوسيولوجي للبنية الاجتماعية 28
4. الشعور الجمعي: دور أساسي في بناء المجتمع 29
القسم الثاني :سوسيولوجيا الانتحار: قراءة نظرية وواقعية 29
1. دراسة الانتحار: تحليل سوسيولوجي لدوركايم 29
2. البعد الإمبريقي للظاهرة: بين المعطى الإحصائي والسياق الاجتماعي 30
3. المفاهيم المحورية في نظرية دوركايم 31
4. العلاقة بين البنية الاجتماعية والانتحار: نحو فهم مركب 34
5. النقد والتأثيرات المعاصرة 35
6. المنهج الإحصائي لدوركايم ودور البنية الاجتماعية في تفسير ظاهرة الانتحار 35
7. التكامل والتضامن الاجتماعي: الوقاية من الانتحار والتفكك 36
8. الدين والتنظيم الاجتماعي: أدوات للوقاية من الانتحار 37
9. من دوركايم إلى باومان: تحوّلات في فهم الانتحار بين البنية والمعنى 38

10. القراءة الواقعية: بين المقاربة الغربية والسياق العربي – الجزائري 39
القسم الثالث: من دوركايم إلى ماركس وفيبر: مقارنة نظرية.....40
1. إميل دوركايم: إميل دوركايم والانتحار كتفكك اجتماعي 40
2. ماكس فيبر والانتحار كفهم ذاتي 40
3. كارل ماركس والانتحار كنتيجة للطبقية 41
4. مقارنة نظرية:.....42
5. التفسير السوسيولوجي الحديث:.....42
الفصل الرابع :المهاجرون والهوية: بين مدرسة شيكاغو والبحث الميداني 43
القسم الأول :المؤسسون: من البحث الميداني إلى الهوية الاجتماعية.....43
1. الفلاح البولندي": بداية البحث الميداني من توماس وزنانيكي.....43
2. فلوريان زنانيكي ودوره في السوسيولوجيا 44
القسم الثاني: المنهج الميداني وتطبيقاته التحليلية.....44
1. أثر دراسة "الفلاح البولندي" في تطور السوسيولوجيا.....45
2. الفلاح البولندي وبداية البحث السوسيولوجي الميداني 46
3. أبعاد البحث الميداني وأدواته.....46
4. تحولات المواقف الاجتماعية والهجرة 47
5. الهجرة والاندماج الاجتماعي 47
6. السياق التاريخي والاجتماعي لشيكاغو 47
7. التأثيرات المعاصرة والتوجهات البحثية.....48
8. أهمية الوثائق الذاتية في البحث الاجتماعي 50
9. تحليل "الفلاح البولوني" باعتباره دراسة رائدة في السوسيولوجيا.....51

10. التحولات الاجتماعية في ظل الهجرة 51
القسم الثالث :دراسات ميدانية متقدمة 52
1. قصة المهاجر "فلاديك" 52
2. مفاهيم جديدة حول الهوية الاجتماعية والهجرة 53
3. التمثلات الاجتماعية و"تحديد الوضعية" 53
4. دور الهجرة في تشكيل الهوية 54
5. إسهام توماس وزنانكي في السوسيولوجيا 54
6. تطوير سوسيولوجيا الهجرة والتحضر 55
الفصل الخامس :الدراسات السوسيولوجية الكبرى: من ميدلتاون إلى جونار ميردال 56
القسم الأول :دراسة ميدلتاون – الروح السوسيولوجية لروبرت وهيلين ليند 56
1. مدخل إلى سوسيولوجيا "ميدلتاون" 56
2. المعمار المنهجي لدراسة ميدلتاون 57
3. بين البنية والفاعلين – قراءة في نتائج الدراسة 57
4. الأثر السوسيولوجي لدراسة ميدلتاون 58
5. نتائج دراسة ميدلتاون 61
6. مساهمة سوسيولوجية عابرة للأزمنة 63
القسم الثاني :دراسة هاوثورن "إلتون مايو" 63
1. دراسة هاوثورن "إلتون مايو" 63
2. تجارب هاوثورن(Hawthorne Studies) 64
3. نتائج دراسة هاوثورن: قراءة تحليلية سوسيولوجية 67
4. تأثير نتائج تجارب هاوثورن على النظريات الإدارية الحديثة: قراءة نقدية مقارنة 68

5. تطبيقات معاصرة لأفكار تجارب هاوثورن في الإدارة الرقمية والقيادة الحديثة:.....70

6. المدرسة السلوكية في الإدارة: منظور سوسيولوجي حديث.....73

القسم الثالث :دراسة "يانكي سيتي" – لويد وارنر 74

1. دراسة "يانكي سيتي" – لويد وارنر 74

2. نبذة عن حياة لويد وارنر 74

3. مساهماته الميدانية.....74

4. التحليل السوسيولوجي للدراسة.....75

5. امتداد دراسات وارنر إلى المصنع.....75

6. الإرث الأكاديمي:.....76

7. التحليل السوسيولوجي لنتائج دراسة "يانكي سيتي" 78

8. استنتاجات عامة للدراسة:.....80

9. أهمية دراسة "يانكي سيتي" في علم الاجتماع المعاصر.....82

10. نحو فهم سوسيولوجي متجدد للطبقة والمجتمع 84

الفصل السادس :دراسات في سوسيولوجيا الفقر والطبقات الاجتماعية 86

القسم الأول: التحليل السوسيولوجي لمجتمع النواصي في ضوء نموذج وايت 86

1. التفاعل الرمزي وبناء الهوية في مجتمع النواصي.....86

2. السلطة الشبكية والزعامة غير الرسمية.....86

3. سوسيولوجيا الفضاء الحضري والهامش.....87

4. دروس نظرية ومنهجية من تجربة وايت.....88

القسم الثاني: الأزمة الأمريكية في ضوء أطروحة "جونار ميردال" – قراءة تأويلية ونقدية.....88

1. مدخل إلى النسق التفسيري عند جونار ميردال.....88

2. أزمة القيم في المجتمع الأمريكي – السود بوصفهم "الآخر الداخلي" 89
3. عنف الدولة وآليات الإقصاء الخفي 90
4. ميردال ونقد "التكامل الاجتماعي التلقائي" 90
5. راهنية ميردال – لماذا لا تزال دراسته حاضرة؟ 90
6. الأزمة الأمريكية في ضوء تحليل جونار ميردال – قراءة في بنيات التمييز العرقي والديناميكيات الاجتماعية 91
7. مدخل إلى الأزمة – تأطير نقدي لمشروع ميردال 91
8. تحليل البنية الاجتماعية والتناقض القيمي في المجتمع الأمريكي 92
9. نتائج الدراسة: قراءة تأويلية في ضوء المفاهيم السوسيولوجية المعاصرة 93
10. الأثر الأكاديمي والديناميكيات اللاحقة – من "ميردال" إلى "كرامير" و"دو بوا" 94
11. استنتاجات الدراسة 94
12. المصادر المؤثرة في تطور البحث السوسيولوجي: 96
القسم الثالث: المصادر المؤثرة في تطور البحث السوسيولوجي 97
1. إسهامات مدرسة شيغاكو الثانية 97
2. دراسة ثقافة الفقر(لويس أوسكار) 98
3. مفهوم ثقافة الفقر: 99
4. خصائص ثقافة الفقر: 99
5. دراسة ثقافة الفقر عند "أوسكار لويس" 99
6. الإطار المنهجي لدراسة أوسكار لويس 100
7. خصائص ثقافة الفقر عند أوسكار لويس 100
8. نقد نظرية أوسكار لويس 101

9. نتائج دراسة "ثقافة الفقر"..... 102

10. ثقافة الفقر كإطار تفسيري..... 105

القسم الرابع: دراسة "اختيار الشعب" لبول لازارسفيلد..... 106

1. مدخل عام لدراسة "بول لازارسفيلد"..... 106

2. نظرية انتقال المعلومات على مرحلتين..... 107

3. دراسة "اختيار الشعب"..... 108

5. منهجية البحث:..... 109

6. التحليل السوسيولوجي:..... 109

7. نتائج الدراسة:..... 109

القسم الخامس: دراسة الجندي الأمريكي "صمويل ستوفر وآخرون"..... 111

1. مدخل عام لدراسة الجندي الأمريكي..... 112

2. مضمون المجلدات الأربعة:..... 113

3. فرع البحوث والهندسة الاجتماعية في الإدارة العسكرية 113

4. دور الهندسة الاجتماعية في تغيير الثقافة العسكرية 113

5. الانتقادات والملاحظات على "الجندي الأمريكي"..... 114

القسم السادس: إسهامات إرفينغ غوفمان 114

1. إدارة الانطباع:..... 115

2. التواصل كمنظومة اجتماعية:..... 116

3. العالم كمسرح..... 116

4. تطبيق نظرية غوفمان في المؤسسات الاجتماعية:..... 117

القسم السابع: دراسة "الغرباء" لهوارد بيكر..... 117

1. نظرية الوصم الاجتماعي 118
2. الانحراف الأولي والانحراف الثانوي 118
3. دراسة هوارد بيكر 119
4. الغرباء – دراسة في سوسيولوجيا الانحراف 120
5. التحليل السوسيولوجي لمجتمع النواصي 120
6. التحليل المقارن بين مجتمع النواصي والمجتمعات الهامشية في العالم العربي 123
خاتمة عامة 125
قائمة المصادر والمراجع 126

مقدمة الكتاب

في قلب التحولات العميقة التي عرفها علم الاجتماع خلال القرن العشرين، تبرز دراسات المؤسسات والسياقات الميدانية بوصفها المعبر الأكثر فاعلية نحو فهم الواقع الاجتماعي في تشعبه، وغموضه، وتناقضاته، حيث انتقل علم الاجتماع من دراسة الكليات المجردة إلى تحليل التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية، وتحول من رصد الظواهر الكلية إلى تفكيك الرموز والمعاني التي تصنع تلك الظواهر، وفي هذا المسار، برزت دراسات مثل "ميدلتاون"، "يانكي سيتي"، "مجتمع النواصي"، "الفلاح البولندي"، و"الجندي الأمريكي"، باعتبارها علامات فارقة ونماذج تفسيرية عميقة، أعادت تشكيل أدوات البحث ووسعت أفق التحليل السوسيولوجي.

إن هذا الكتاب لا يقدّم مجرد عرض تاريخي أو تلخيص للمدارس السوسيولوجية، بل يسعى إلى تقديم مقاربة تأويلية نقدية لتلك التجارب الرائدة، من خلال ربطها بسياقاتها المعرفية، وتحليل بنياتها النظرية، وتتبع تأثيراتها المعاصرة، خاصة في ضوء التحديات التي تواجه المجتمعات الحديثة كالفقر، الهامشية، العنف الرمزي، التغير الحضري، والتفاوت الطبقي.

توجهنا في هذا العمل إلى إحياء دراسات تمثل "ذاكرة حية" لعلم الاجتماع، وتحمل في طياتها بذور الثورة المعرفية التي جعلت من السوسيولوجيا علما متجددا، ناقدا، منفتحا على الذات والآخر، وقد اخترنا أن نخاطب من خلال هذا المؤلف طلبة علم الاجتماع، ليس كمجرد متلقين، بل كمشاركين في بناء معرفة تتجاوز التلقين نحو الفهم والتفكيك والتأويل.

إن هذا الكتاب ثمرة تتويج لتجربة أكاديمية ممتدة، وهو موجه لكل من يسعى إلى تعميق فهمه للمؤسسة، والهامش، والطبقة، والهوية، والانتماء، ولمن يرغب في أن يكون علم الاجتماع أداة لفهم الذات، وإعادة التفكير في المجتمع من زوايا غير مألوفة.

الفصل الأول: مدرسة شيكاغو: التأسيس والنظريات السوسيولوجية الكبرى

القسم الأول :إسهامات مدرسة شيكاغو في بناء علم الاجتماع

1. إسهامات مدرسة شيكاغو في بناء علم الاجتماع الحديث

تعتبر مدرسة شيغاكو واحدة من المدارس السوسيولوجية الأكثر تأثيرا التي ساهمت بشكل كبير في تطور علم الاجتماع الحديث، حيث شكلت نقطة تحوّل حاسمة في تطوير مناهج البحث السوسيولوجي، وما يميز هذه المدرسة هو تبنيها للمناهج التجريبية والتقنيات الميدانية التي تستخدم حتى يومنا هذا في فهم الظواهر الاجتماعية، ومن بين هذه الأدوات البارزة نجد الملاحظة بالمشاركة، دراسة الحالات، والاستبيانات الميدانية، وهي تقنيات أضحت من الركائز الأساسية في ممارسة البحث السوسيولوجي (آدامسون، 2018).

ظهرت مدرسة شيغاكو في مطلع القرن العشرين، وقد برزت قوتها في إعادة رسم ملامح البحث السوسيولوجي بفضل روادها الأوائل مثل توماس، بارك، بيرجيس، ووورث، وماكنزي، ورغم مرور الزمن، يبقى تأثير هذه المدرسة حيا، بل تتجدّد أتباعها وأعمالها بين الحين والآخر، مما يجعلها جزءا أساسيا من المناهج السوسيولوجية المعاصرة، ومع منتصف الخمسينات، ظهرت "المدرسة الثانية" التي ضمت مفكرين كبارًا مثل هوارد بيكر، أرنسين كرنفينل، إيرفينغ غوفمان، وأنثوني ستراوس، الذين أسهموا في توجيه علم الاجتماع نحو آفاق جديدة، هذا التجدد المستمر في أفكار المدرسة شيغاكو يعكس التزامها العميق بالتطور والتكيف مع متغيرات المجتمع وعلم الاجتماع المعاصر (كينغ، 2020).

2. تأثير مدرسة شيكاغو على التيارات السوسيولوجية الحديثة

تواصل مدرسة شيغاكو في التأثير بشكل ملموس على الاتجاهات السوسيولوجية الحديثة، فقد كانت مصدرًا أساسيا لتطوير عدة تيارات سوسيولوجية بارزة، على سبيل المثال، نجد الإثنوميتودولوجيا(Ethnomethodology) ، التي ظهرت على يد هارولد

غارفينكل في أواخر الخمسينات، والتي أسهمت في تركيز الاهتمام على "الأنماط الدقيقة" التي يتبعها الأفراد في تفاعلهم اليومي، كما ساهمت المدرسة في نشوء التفاعلية الرمزية الجديدة التي تركز على كيفية تأثير الرموز والتفاعلات الاجتماعية على سلوك الأفراد (فينيغان، 2019)، ولم تقتصر التأثيرات على الأطر النظرية فحسب، بل امتدت لتشمل ممارسات البحث الميداني، مثل سوسيولوجيا الحياة اليومية التي تدرس أنماط الحياة اليومية للناس في بيئات حضرية، إضافة إلى الأبحاث السوسيولوجية النموذجية التي تقدم حلولا عملية لدراسة الجماعات الصغيرة والمجتمعات الحضرية.

3. مدرسة شيكاغو: مسار عمل وتفكير مبتكر

قد يعتقد البعض أن مدرسة شيغاكو هي مجرد تيار ميتودولوجي، لكن مؤيديها يرون فيها "مدرسة للأشغال والعمل" كما وصفها هوارد بيكر، حيث تميز مدرسة شيغاكو بتركيزها على التطبيق العملي للمفاهيم النظرية، إن الباحثين في هذه المدرسة يؤمنون بأن دراسة المجتمع تتطلب التفاعل المباشر مع الواقع الاجتماعي، وأن العمل الميداني هو المفتاح لفهم الظواهر الاجتماعية في سياقاتها الطبيعية، ويلتزم هذا الاتجاه بالتوجه نحو الممارسات العملية التي تهدف إلى فهم الأفراد داخل مجتمعاتهم بدلا من تجريدهم من هذا السياق الاجتماعي المعقد (بيكر، 1986).

4. منهجية شيكاغو: الفرد كفاعل محوري في التغيير الاجتماعي

تعتبر مدرسة شيغاكو من أبرز المدارس التي تركز على الفرد باعتباره الفاعل الاجتماعي المحوري في دراستها للظواهر الاجتماعية، وفي هذا السياق، يؤكد هوارد بيكر أنه لفهم سلوك الفرد يجب على الباحث أن يعي أولا كيف يدرك الفرد وضعه الاجتماعي، والعوائق التي يعتقد أنه سيواجهها، والبدائل التي يراها متاحة له، ولا يمكن فهم هذا التصور للسلوك الاجتماعي بشكل كامل دون النظر إليه من زاوية الفاعل الاجتماعي نفسه (بيكر، 1994).

من خلال هذا المنهج، يصبح من الضروري استخدام تقنيات بحثية متخصصة تتجاوز الأطر التقليدية التي تعتمد على الملاحظة الكمية والآلية، فالبحث السوسيولوجي في مدرسة شيغاكو يعتمد على "المنهج السوسيولوجي الكيفي"، الذي يشمل أدوات بحثية مثل الملاحظة الميدانية المباشرة، المقابلات الشخصية، ودراسة الحالات، وهذه الأساليب تمكن الباحثين من فهم عميق للظواهر الاجتماعية بما يتجاوز مجرد الإحصائيات والأرقام، لتسلط الضوء على التجارب الفردية والظروف الاجتماعية التي تشكل هذه التجارب (كرنفينل، 2017).

5. التجديد المستمر: رؤية مدرسة شيكاغو في البحث السوسيولوجي

على الرغم من مرور عقود من الزمن على تأسيس مدرسة شيغاكو، إلا أن أفكارها لم تفقد زخمها، بل إنها لا تزال منبعا رئيسيا للتجديد السوسيولوجي، حيث يتابع تلاميذ هذه المدرسة تطوير أدوات بحثية جديدة في تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة التي تبرز في المجتمعات الحضرية والصناعية، ومع تحديات العصر الحديث، مثل العولمة والاقتصاد الرقمي، تبقى المدرسة مصدرا ملهما لفهم الأنماط السلوكية للأفراد والجماعات في سياقات اجتماعية متجددة ومعقدة (سميث، 2021).

6. المنهج الكيفي: الغوص في التفاصيل الاجتماعية

في إطار هذا التصور السوسيولوجي، يعتمد الباحثون في مدرسة شيغاكو على المنهج السوسيولوجي الكيفي، الذي يسعى لفهم التجارب الشخصية للأفراد ضمن السياقات الاجتماعية المعقدة التي يعيشون فيها، حييث يعد هذا المنهج أداة قوية في فهم الأبعاد النفسية والاجتماعية التي تشكل سلوكيات الأفراد، حيث تتيح هذه المقاربة للباحثين الخوض في أعماق المجتمعات وفحص الأنماط السلوكية التي تتأثر بالعوامل الثقافية والبيئية (غوفمان، 2003).

القسم الثاني :المدينة والتحضر: من الهامش إلى المركز السوسيولوجي

1. المدينة كظاهرة اجتماعية: دراسة سوسيولوجية معمقة

تشكل المجتمعات الحضرية موضوعا محوريا في البحث السوسيولوجي، إذ تتسم بتنوعها وتعقيداتها الناتجة عن التفاعل المستمر بين الأفراد والبيئة الاجتماعية التي يعيشون فيها، ويرتبط التحضر بمسار طويل من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تفرض تحديات كبيرة على الأفراد والجماعات في المدن، لذا، كانت المدينة، بما هي مركز النشاط الإنساني، محورا للكثير من الدراسات السوسيولوجية التي تسعى لفهم تأثير التحولات الكبرى في نمط الحياة على أنماط السلوك الاجتماعي، سواء من حيث الهجرة، التمدن، أو تأثير الرأسمالية على العلاقات الاجتماعية (الخشاب، 1976).

لقد طرحت هذه الدراسات العديد من الأسئلة حول كيفية تأثير البيئة الحضرية على تطور الأفراد والجماعات، وسبل فهم علاقة الأفراد بالمدينة وبالأنماط الاجتماعية السائدة فيها، فالنمو الحضري المتسارع يعكس تزايدا في كثافة السكان وظهور مشكلات اجتماعية متعددة، من بينها الانحرافات الاجتماعية والجريمة، ما جعل دراسة المجتمعات الحضرية ضرورة ملحة لفهم التغيرات التي تطرأ عليها.

2. التحضر والرأسمالية: العلاقة المعقدة والتأثيرات المتبادلة

من بين الظواهر الاجتماعية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتحضر هي الرأسمالية التي تعتبر محركا رئيسيا في تشكيل المجتمعات الحضرية، فقد أدت الرأسمالية إلى تداخل القيم المادية وتحولها إلى قيم سائدة في المجتمعات الحديثة، متفوقة بذلك على القيم التقليدية التي كانت تميز الأنماط الاجتماعية القديمة، وفي هذا السياق، شكلت مدينة شيغاكو، في بداية القرن العشرين، نموذجا حيا للمدينة الحديثة التي شهدت نموًا سريعا وتنوعا عرقيا، ما أظهر تحديات اجتماعية جديدة تتطلب دراستها، مثل مشكلات التصنيع والنمو الحضري السريع الذي أدى إلى ظهور الفقر، الجريمة، والانحراف الاجتماعي (بيرجيس وبارك، 1921).

3. منهج البحث الحضري: أدوات وتحليلات سوسيولوجية جديدة

تتمثل أبرز التقنيات المستخدمة في دراسة المجتمعات الحضرية في المنهج السوسيولوجي لمدرسة شيغاكو، والتي اعتمدت على أدوات بحث ميدانية تساعد في فهم الواقع الاجتماعي بشكل أعمق، ومن بين أبرز هذه الأدوات:

1. **إستغلال الوثائق الشخصية** :مثل المراسلات الشخصية والمذكرات، التي تساعد الباحث في الحصول على رؤى حية حول تجارب الأفراد في بيئتهم الاجتماعية.
2. **دراسة الحالة** :تعتمد على الملاحظة المباشرة، الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية التي تتيح للباحث التفاعل مباشرة مع الأفراد، مما يساهم في فحص واقعية الظواهر الاجتماعية في المدن.
3. **المقابلات الشخصية** :تمثل أداة رئيسية في جمع المعلومات من الأفراد حول حياتهم اليومية، ما يساهم في رسم صورة دقيقة للواقع الاجتماعي للأفراد في المدينة.

وقد أسهم هذا المنهج في تطوير الأدوات السوسيولوجية المتخصصة التي تسهم في تقديم تفسيرات دقيقة للأحداث الاجتماعية داخل المدن، ووفقا لما ذكره بيرجيس وبارك في مؤلفهما "مقدمة لعلم السوسيولوجيا"، فإن منهج شيغاكو يعتمد على التقنيات التجريبية والميدانية التي تتيح للباحثين دراسة الظواهر الاجتماعية بشكل مباشر ودقيق (بيرجيس وبارك، 1921).

4. العوامل الاقتصادية والاجتماعية: محركات التحولات الحضرية

إن الفهم السوسيولوجي للمجتمعات الحضرية لا يقتصر فقط على الجانب الاجتماعي، بل يشمل أيضا تأثير العوامل الاقتصادية، فالنمو الحضري غالبا ما يكون مدفوعا بالتحولات الاقتصادية التي تشمل التصنيع، التوسع الصناعي، والنمو السريع للمدن، وتنعكس هذه التحولات في زيادة الكثافة السكانية، وتوسيع رقعة المناطق الحضرية، بالإضافة إلى ظهور طبقات اجتماعية جديدة، مما يؤدي إلى زيادة التوترات

الاجتماعية والصراعات الثقافية بين سكان المدن والمهاجرين الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة.

في هذا الإطار، يشير بعض الباحثين إلى أن الزيادة السريعة في حجم السكان في المدن قد تؤدي إلى ظهور مشاكل سكانية مثل التكدس السكاني، مما يتسبب في زيادة الفقر وظهور مناطق متخلفة في النمط الحضري، وهذا ما أدى إلى ظهور العديد من الدراسات التي تناولت كيفية تأثير هذه الظواهر على حياة الأفراد، مثل دراسة تأثير الهجرة على العلاقات الاجتماعية في المدن الكبرى (الكردي، 1977).

إن دراسة المجتمع الحضري تبرز أهميتها بشكل خاص في السياقات المعاصرة، حيث تتزايد التحديات الناتجة عن النمو الحضري السريع، وهذا النمو، الذي يرافقه تطور في الصناعة وزيادة في الهجرة، يتطلب دراسة دقيقة لظواهر الانحراف الاجتماعي، التوترات الثقافية، والاختلافات الطبقية في المدينة، ومع تطور مناهج البحث السوسيولوجي، يصبح من الممكن فهم أعمق لواقع المجتمعات الحضرية من خلال الاعتماد على تقنيات ميدانية متقدمة تتيح للباحثين تحليل السلوكيات الاجتماعية بشكل مباشر وواقعي، وإن فهم هذه الظواهر يساعد في تقديم حلول عملية للتحديات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجه المدن الكبرى في العالم المعاصر.

5. لويس ويرث: سوسيولوجيا التحول الاجتماعي في الحضر

في مطلع القرن العشرين، أحدث عالم الاجتماع الأمريكي **لويس ويرث (Louis Wirth)** تحولا جذريا في النظر إلى المدينة ليس فقط كمجال جغرافي أو اقتصادي، بل بوصفها بناءا اجتماعيا متكاملا يخلق نمطا مميزا من الحياة، وهو ما تجسّد في دراسته التأسيسية "الحضرية كأسلوب حياة *(Urbanism as a Way of Life)* "التي نشرت عام 1938، وفي هذه الدراسة، وضع ويرث تصورا سوسيولوجيا للحياة الحضرية باعتبارها نسقا معقدا من العلاقات غير الشخصية، يقوم على التفاعلات السريعة والمحدودة

زمنيا، وهو ما يولد، بحسبه، حالة من التباعد الاجتماعي، والانغلاق العاطفي، وتراجع التضامن الميكانيكي.(Wirth, 1938)

يرى ويرث أن المدينة الحديثة تنتج علاقات اجتماعية قائمة على التخصص والتقسيم المهني، مما يجعل الأفراد أكثر اعتمادا على المؤسسات، وأقل تواصلا مباشرا فيما بينهم، فالعلاقات في الفضاء الحضري تتميز بالطابع الرسمي(Formalization) ، وبالتركيز على الإنجاز والكفاءة أكثر من الارتباط العاطفي أو القرابة، على عكس ما هو سائد في المجتمعات الريفية(Wirth, 1938; Giddens, 2009) ، كما أكد ويرث أن الكثافة السكانية، والحجم الكبير، والتنوع الاجتماعي، هي سمات بنيوية تولّد أنماطا جديدة من السلوك، من بينها الفردانية، التنافس الشديد، والانشغال الدائم، مما يضعف الروابط التقليدية ويزيد من مستويات العزلة والاغتراب الحضري.(Goffman, 1961)

هذا التحول في العلاقات الاجتماعية لا يقتصر على المدينة فحسب، بل يتسرب إلى الأرياف التي تشهد بدورها ما يسمى "تحضّر الريف(Rural Urbanization) "، أي انتقال أنماط الحياة الحضرية إلى المجتمعات الريفية، بما في ذلك القيم، والاستهلاك، والتكنولوجيا، وهو ما أشار إليه ويرث كمؤشر على الانتقال الكلي نحو الحداثة الاجتماعية.

الفصل الثاني :المدرسة الإيكولوجية الحضرية: التفاعل بين البيئة والمجتمع

القسم الأول :المدينة كنظام بيئي: رؤية روبرت بارك الإيكولوجية

1. المدينة كنظام بيئي: رؤية روبرت بارك الإيكولوجية

في إطار مدرسة شيكاغو، قدّم **روبرت إزرا بارك (Robert Ezra Park)** إسهاما نوعيا في تحليل المدينة باعتبارها نظاما إيكولوجيا اجتماعيا، يعتمد على قوانين شبه بيولوجية في التنافس، والسيطرة، والتعايش، وهي مفاهيم استعارها من علم الأحياء لتفسير التوزيع المجالي للسكان داخل المدينة(Park & Burgess, 1925) ، في هذا الإطار، يرى بارك أن المدينة ليست مجرد تجمع عمراني، بل هي نظام متفاعل من الجماعات، تتنافس على الموارد والمجال، ما يؤدي إلى تشكّل مناطق سوسيومجالية لها خصائص ثقافية وسلوكية متميزة، مثل الأحياء العمالية، أو الأحياء المهاجرة.

ويعتبر بارك أن المدينة تمر بمراحل تطور بيئي تشبه تطور الكائنات الحية، مثل الغزو (Invasion)، والنزوح (Succession)، وهو ما يفسر الدينامية السكانية وتغير خريطة النفوذ بين الجماعات الحضرية، وقد مثّلت هذه المقاربة نقلة نوعية في فهم الظواهر الحضرية، حيث أصبحت المدينة تدرس بوصفها كيانا حيا، يتغير باستمرار تحت تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية.(Park, 1925)

ومع تسارع وتيرة التصنيع والتحضر، أضحت هذه المفاهيم مركزية في تفسير تنامي ظواهر مثل التهميش، والتفاوت الطبقي، والانعزال الاجتماعي، وهي كلها ظواهر ذات طبيعة سوسيولوجية عميقة مرتبطة بالبنية الإيكولوجية للمدينة.

2. الاتجاه الإيكولوجي: علم الاجتماع الحضري في سياق البيئة

يعد الاتجاه الإيكولوجي أحد الركائز المفاهيمية الأساسية في تطور علم الاجتماع الحضري، وقد نشأ كرد فعل علمي على التحولات الجذرية التي شهدها الغرب في أعقاب

الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، وما رافق ذلك من إعادة تشكيل للبنى الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والمعرفية، فلقد ساهمت هذه التحولات في بروز أنماط اجتماعية جديدة، أبرزها الحياة الحضرية، وانتقال السكان من الأرياف إلى المدن، ما استدعى ضرورة فهم البُنى الجديدة التي أنتجتها المدينة الحديثة (البياني، 2011).

وعليه، برز علم الاجتماع الحضري بوصفه الحقل الذي يعنى بدراسة تأثير الحياة المدينية على السلوك الفردي والجماعي، وتحليل أنماط التفاعل الاجتماعي، وأنساق القيم، والضوابط، والأنماط المؤسسية المرتبطة بها، فهو لا يكتفي بوصف المدينة من الناحية المكانية، بل يتجاوز ذلك إلى تفسير التحولات البنيوية التي تنتج عن الحراك السكاني، والهجرة، والتوسع الحضري، مما جعل هذا التخصص العلمي أداة لفهم الديناميكيات المعقدة للمجتمع الحضري (ناصف، 2006).

ضمن هذا السياق، ظهرت مقاربتان سوسيولوجيتان لفهم ظاهرة التحضر والهجرة: (عبد اللطيف، 2005).

1. **الاتجاه التنظيمي**، الذي يركّز على كيفية تشكل الأنماط السلوكية والتنظيمات الاجتماعية داخل المدن، مستندا إلى فكرة أن التوسع الحضري يخضع لعمليات منظمة يمكن تفسيرها سوسيولوجيا.
2. **الاتجاه الإيكولوجي**، الذي تبنّى مقاربة بيولوجية في تحليل المدينة، حيث ينظر إلى المدينة كبيئة "حيّة" تنشأ فيها الجماعات الاجتماعية وتتوزع داخلها كما تتوزع الكائنات الحية في النظام البيئي، بما في ذلك التنافس، والتكيف، والانتقاء الطبيعي.

وقد تبلور هذا الاتجاه ضمن ما عرف لاحقا بـ"مدرسة شيكاغو"، والتي ضمت مجموعة من رواد علم الاجتماع الأمريكيين مثل **روبرت إزرا بارك(Robert Ezra Park)** ، **وإرنست بورغس(Ernest W. Burgess)** ، **ووليام توماس(William I. Thomas)** ،

هؤلاء المفكرون اعتبروا أن فهم المدينة يجب أن يتم من خلال تحليل الروابط التفاعلية بين الجماعات البشرية وبيئتها الحضرية.(Park, 1930)

في رؤيته السوسيولوجية، ذهب **روبرت بارك** إلى أن "المدينة ليست فقط مكانا جغرافيا، بل كائن حي يتطور وفق منطق طبيعي(Park, 1930) "، وقد اقترح بارك أن المدينة هي نظام اجتماعي يتوزع عبر مناطق متمايزة ، لكل منها خصائص ثقافية وسلوكية، تشبه إلى حد بعيد ما يحدث في البيئة الطبيعية من تنافس بين الكائنات الحية من أجل السيطرة على الموارد، وعليه، فإن التنظيم المكاني للمدينة هو انعكاس للصراع الاجتماعي والاقتصادي بين الجماعات، حيث تعاد صياغة أنماط العلاقات وفق مبدأ "الانتقاء الطبيعي الاجتماعي."

تتفرّد الإيكولوجيا الحضرية عن الجغرافيا البشرية بتركيزها على تحليل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد داخل الفضاء الحضري، بدلا من الاقتصار على التفاعل بين الإنسان والبيئة الفيزيائية، فالإيكولوجيا الحضرية تدرس كيف تؤثر العوامل البيئية – مثل الكثافة السكانية، التخصص الوظيفي، والحراك الاجتماعي– في تشكيل أنماط العيش، والتفاعلات اليومية، والتسلسل الهرمي داخل المدينة، حيث أنها بذلك تقدم قراءة "دينامية" للمدينة باعتبارها شبكة من التفاعلات المستمرة وغير المستقرة، تعيد إنتاج ذاتها باستمرار.

ووفق هذا المنظور، فإن المدينة تصبح "نظاما عضويا" له إيقاعه الخاص، وهيكل تنظيمي يتشكل من خلال التفاعلات المستمرة بين الفاعلين الاجتماعيين في ظل شروط مكانية وزمانية معينة، وقد ذهب بارك إلى أن التحضر هو أسلوب حياة أكثر من كونه مجرد تجمع سكاني، حيث تتسم الحياة المدينية بقدر أكبر من الفردانية، واللاتماسك، والتغير السريع، وهي سمات تؤثر في بنية العلاقات الاجتماعية وتعيد تشكيل الوعي الجمعي.(Park & Burgess, 1925)

وبذلك، يمكن القول إن الاتجاه الإيكولوجي أسهم في إرساء أساس نظري لفهم المدينة كنسق سوسيولوجي معقّد، يتطلب أدوات تحليل متعددة لفهمه، وقد أسّس لحقول معرفية لاحقة مثل الإيكولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الحضرية، ودراسات الهجرة والتحضر.

3. نشأة وتطور مدرسة شيكاغو: تطور البحث في علم الاجتماع الحضري

تعدّ مدرسة شيكاغو أحد المعالم الفكرية البارزة في تطور علم الاجتماع الحضري، حيث مثّلت انعطافة نوعية في فهم الظواهر الاجتماعية في المدن الكبرى، من خلال استعارة مفاهيم مستمدة من العلوم البيولوجية وتطبيقها على المجال الحضري، حيث يعود أصل استخدام مصطلح "الإيكولوجيا (Ecology) "إلى علم الأحياء، وقد استخدمه "إرنست هايكل" سنة 1866 للدلالة على دراسة التفاعلات المتبادلة بين الكائنات الحية وبيئاتها الطبيعية، ومع تبنّي هذا المفهوم في علم الاجتماع، بدأت مدرسة شيكاغو في مطلع القرن العشرين في توظيفه لدراسة الحياة الحضرية بوصفها نظامًا ديناميكيا يشبه المنظومات البيئية الطبيعية من حيث التنافس، التكيف، والتدرج المكاني.

وقد ساهم روبرت بارك (Robert E. Park) بشكل محوري في بلورة هذا التوجه من خلال ما عُرف لاحقا بـ "النظرية الإيكولوجية الحضرية"، والتي استندت إلى فرضيتين رئيسيتين: الأولى أن السياقات الحضرية تؤثر بعمق على سلوك الأفراد والجماعات، والثانية أن نمو المدن وتوسعها يجري وفق قوانين اجتماعية وبيئية متداخلة، تجعل من المدينة تنظيما أخلاقيا وثقافيا أكثر من كونها مجرد بنية فيزيائية.(Park, 1925)

4. مدرسة شيكاغو: مدرسة لتوجهات سوسيولوجية جديدة

شهدت الولايات المتحدة، عقب الحرب العالمية الأولى، ازدهارا كبيرا في حركة البحث الاجتماعي التطبيقي، وجاءت مدينة شيكاغو كإطار تجريبي مثالي، نتيجة التحولات العميقة التي شهدتها منذ أواخر القرن التاسع عشر، بفعل التمدين السريع، والهجرة الداخلية والخارجية، وارتفاع معدلات الفقر والانحراف والجريمة والصراعات العرقية،

وقد شكّل هذا الواقع الحضري بيئة خصبة لتطور أول مدرسة سوسيولوجية ميدانية تعنى بدراسة الحياة في المدينة، وذلك عبر أبحاث أجريت بين عامي 1901 و1931 في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو.

تميزت مدرسة شيكاغو بانفتاحها المنهجي واعتمادها على الملاحظة المباشرة، والسير الذاتية، والمقابلات، والوثائق الرسمية، في إطار بحث ميداني عميق ومتشعب، ومع أن هذه المدرسة لم تتبنى إطارا نظريا موحدا، فإنها تميّزت بوحدة منهجية ترتكز على النزعة التجريبية، ما أتاح لها التأثير الواسع في تكريس علم الاجتماع كعلم قائم على دراسة الواقع الاجتماعي الحي والمعيش (المالكي، 2016).

وقد أشار "هوارد بيكر (Howard Becker) "إلى أن التميز الحقيقي لمدرسة شيكاغو لم يكن في إنتاجها النظري، بل في الأساليب التجريبية التي ابتكرتها والنتائج التي توصلت إليها، خصوصا في كتابه "المنبوذون *Outsiders* "الذي أبرز فيه كيف يمكن دراسة الانحراف كنتاج لسياقات اجتماعية محددة وليس كنتيجة لطبيعة فردية (Becker, 1963)، أما "ألان كولون" فقد شدد على أن سوسيولوجيا شيكاغو استطاعت أن تخلق مقاربة ديناميكية تدمج بين البيئة الحضرية والسلوك الإنساني، مما جعلها حجر الزاوية في انطلاقة علم الاجتماع الحضري الحديث (غريب وعبد العاطي، دون تاريخ).

والجدير بالذكر أن صعود مدينة شيكاغو كمركز صناعي وتجاري في فترة وجيزة، وانفجارها السكاني الناتج عن موجات الهجرة، لعب دورا مركزيا في نشوء هذا التيار السوسيولوجي، فقد أصبحت المدينة نموذجا مصغرا للعالم الاجتماعي الحديث، بظواهره المركبة والمتناقضة، وهو ما حوّلها إلى "مختبر سوسيولوجي حي."

5. الإيكولوجيا الحضرية: مقاربات تحليلية مبتكرة للمجال

ارتكز التحليل السوسيولوجي لمدرسة شيكاغو على استعارة مركزية من علم الإيكولوجيا، مفادها أن الحياة الحضرية يمكن تحليلها من خلال ديناميات شبيهة بتلك التي تحكم التوازنات الطبيعية بين الكائنات الحية، فعوضا عن النظر إلى المدينة كبنية

معمارية فقط، اعتبر باحثو شيكاغو أن المدينة تمثل نظاما بيئيا تتفاعل داخله الجماعات البشرية من خلال آليات التنافس، التكيف، الغزو، التكافل، والسيطرة، وتتجلى هذه العمليات في أنماط التوزيع السكاني والوظيفي للمناطق، حيث تخضع الأحياء الحضرية لمنطق شبيه بالتدرج البيولوجي، فتتشكل "مناطق طبيعية" نتيجة لهذه الديناميات.(Park et al., 1925)

لقد ساهمت دراسات مدرسة شيكاغو في الكشف عن أن الظواهر التي تبدو فردية الطابع، مثل الجنوح، الانتحار، أو الأمراض النفسية، ترتبط في الحقيقة بخصائص إيكولوجية معينة للفضاء الحضري، فبعض الدراسات، مثل تلك المتعلقة بالسلوك الإجرامي والانحراف، أوضحت أن هذه الظواهر تتركز غالبا في مناطق محددة من المدينة، تعرف بـ "المناطق الانتقالية"، وهي الأحياء التي تشهد تقلبا سكانيا دائما، وضعفا في الضبط الاجتماعي، وغيابا للروابط الاجتماعية المتينة.

وفي هذا الإطار، يشير "جون مادج (John Madge) "إلى أن ما يميز أعمال مدرسة شيكاغو هو إصرارها على فهم الموقع الجغرافي كعامل تفسيري للسلوك، إلى جانب التزامها الراسخ بقيم الإصلاح الاجتماعي، ما جعلها تجربة سوسيولوجية فريدة تمزج بين العلم والعمل الاجتماعي.(Madge, 1962)

من جهة أخرى، جاءت إسهامات "ماكينزي (R. D. McKenzie) "و"بيرجيس (E. W. Burgess)" إلى جانب "بارك" لتؤسس ما يعرف بالنموذج الدائري للمدينة، وهو تصور إيكولوجي ينظم الفضاء الحضري في حلقات متتابعة انطلاقا من مركز الأعمال، نحو مناطق سكنية متتالية تعكس البنية الاجتماعية والثقافية للسكان (Park, Burgess & McKenzie, 1925)، وقد أنجزت في هذا السياق دراسات رائدة مثل: "الباعة المتجولون" (1921)، "العصابات" (1928)، "الأسرة الزنجية في شيكاغو" (1912)، وغيرها من الدراسات التي دمجت بين أدوات كمية وكيفية، وركزت على الفرد بوصفه نتاجا لبنيته المجتمعية.

ولا يمكن إغفال الطابع الإصلاحي الذي ميّز مدرسة شيكاغو، حيث ربطت بين التحليل العلمي والتدخل العملي، من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية في المناطق المهمّشة، ما يعكس ارتباطها الوثيق بقيم العدالة الاجتماعية والانفتاح الديمقراطي في أمريكا بدايات القرن العشرين.

توفّر الإيكولوجيا الحضرية إطارا تحليليا بالغ الأهمية في علم الاجتماع الحضري، إذ تمكّن من فهم الظواهر الاجتماعية من خلال الربط الجدلي بين البيئة الحضرية والسلوك الإنساني، فقد نظرت مدرسة شيكاغو إلى المدينة بوصفها بيئة ديناميكية تتشكّل فيها السلوكيات الفردية والجماعية عبر عمليات الصراع والتنافس والتكيف، وهي عمليات تتوازى مع ما يحدث في النظم البيئية الطبيعية(Park, 1921) ، وقد مثل هذا المنظور تحولًا نوعيا في دراسة المجتمعات الحضرية، إذ تجاوز التفسيرات السطحية إلى مقاربة تفسيرية تسعى لفهم آليات إنتاج المعنى الاجتماعي داخل الفضاءات الحضرية.

لقد نظر إرنست بيرجس وروبرت بارك إلى المدينة على أنها "مختبر اجتماعي مفتوح"، حيث تتلاقى وتتفاعل عوامل الهجرة، والصراعات الطبقية، والتغيرات الاقتصادية والمؤسسية، وفي هذا السياق، تؤدي المدينة دورا مزدوجا، فهي من جهة فضاء للتقدم والتنوع، ومن جهة أخرى بيئة حافلة بالتوترات والانحرافات، ما يستدعي تحليلًا سوسيولوجيا شاملا لفهم آليات إعادة إنتاج النظام الاجتماعي في ظل التعقيد الحضري المتزايد.(Giddens, 2005)

تستند مدرسة شيكاغو إلى فرضية مفادها أن الظواهر الاجتماعية الحضرية، كالجريمة والتشرد والانحراف، لا يمكن اعتبارها حالات شاذة أو فردية، بل هي تجليات لنمط تفاعل بيئي-اجتماعي. فعبر مفاهيم مثل "المناطق الطبيعية" و"الغزو والتعاقب"، حاول بارك وبيرجس تحليل التوزيع المكاني للسكان وفق أنماط سوسيولوجية محددة تتأثر بعوامل الثقافة، والتكنولوجيا، والموارد الطبيعية، والسلوك الجماعي (Park & Burgess, 1925).

6. روبرت بارك: بناء المنظور الإيكولوجي في علم الاجتماع

يعد روبرت بارك أحد المؤسسين البارزين لعلم الاجتماع الحضري، ومن أبرز منظّري مدرسة شيكاغو، وقد ساهم بشكل محوري في تطوير المفاهيم المنهجية والنظرية التي شكلت قاعدة التحليل الحضري الحديث، واستند بارك في رؤيته إلى فكرة أن المدينة ليست فقط وحدة جغرافية أو اقتصادية، بل هي نظام أخلاقي-اجتماعي تتداخل فيه الأبعاد الرمزية والثقافية مع الأنماط السلوكية اليومية ، ويظهر ذلك جليا في مقاله "المدينة" ،حيث أبرز بعدين جوهريين: أولهما العلاقة بين الظروف الحضرية وسلوك الأفراد، وثانيهما التفاعل بين البيئة الاجتماعية والمكانية في تشكيل التنظيم الحضري.

علاوة على ذلك، ساهم بارك في بناء نموذج تفسيري لفهم "المناطق الطبيعية"، ليس باعتبارها حدودا جغرافية فقط، بل باعتبارها نتاجًا للتوزيع الاجتماعي والثقافي داخل المدينة، وتظهر دراساته كيف تخضع الأحياء الحضرية الفقيرة لعمليات "الغزو" و"الخروج"، أي دخول جماعات جديدة تؤثر في النسق الاجتماعي السائد، ما يؤدي إلى إعادة تشكّل العلاقات الاجتماعية والرمزية في تلك المناطق.(Park, 1930)

كما لعب بارك دورًا إشرافيًا على بحوث ميدانية تناولت قضايا حساسة مثل التفكك الأسري، والانحراف، واضطرابات الصحة النفسية في المدن، وقد مثّلت هذه البحوث تطبيقا عمليا لنموذج الإيكولوجيا البشرية .

وقد توج بارك هذه الجهود بنشر كتاب مشترك مع بيرجس بعنوان *"المجتمع المحلي الحضري"* سنة 1929، والذي يعدّ من المؤلفات المرجعية في تحليل الحياة الحضرية، وقد دمج الكتاب بين المنهج الكيفي (الملاحظة بالمشاركة، ودراسة الحالة) والمنهج الكمي (الإحصاءات وتحليل الخرائط)، مما أسس لتقليد بحثي راسخ في علم الاجتماع الحضري (Giddens, 2005).

7. استنتاجات سوسيولوجية: درس من مدرسة شيكاغو

تبيّن من خلال منظور بارك ومدرسة شيكاغو أن المدينة ليست مجرد بنية مادية أو فضاء للاستهلاك، بل هي سياق متكامل تتفاعل فيه قوى البنية والفاعل، وتنتج داخله أشكال معقدة من التنظيم الاجتماعي، كما تسهم الإيكولوجيا الحضرية، كمنظور تفسيري، في كشف الديناميكيات الخفية للتمايز الطبقي، وإعادة إنتاج اللامساواة، وتشكّل الهويات الثقافية داخل المدن، إن قراءة المدينة من منظور بارك هي قراءة تأويلية للظواهر الحضرية بوصفها جزءا من منطق بيئي-اجتماعي متداخل، لا يمكن فصله عن السياق العام لتحولات الحداثة.

الفصل الثالث :من دوركايم إلى ماركس وفيبر: جدلية الفعل والبنية الاجتماعية

القسم الأول: إميل دوركايم: مؤسس علم الاجتماع الحديث

يشكل إميل دوركايم (Émile Durkheim) أحد الأعمدة الأساسية التي استند إليها علم الاجتماع الحديث، إذ عمل على تقعيده كعلم مستقل يعنى بتحليل الظواهر الاجتماعية باعتبارها "وقائع اجتماعية (Faits sociaux) "تتمتع بوجود خارجي وقهري بالنسبة للفرد، ومن هذا المنطلق، نظر دوركايم إلى المجتمع بوصفه بنية فوق فردية، تتجاوز إرادة الأفراد وتفرض عليهم منظومة قيم ومعايير تسهم في إنتاج النظام الاجتماعي واستمراره، وقد اعتبر أن أحد أهم هذه الآليات هو تقسيم العمل، الذي رأى فيه ليس فقط ضرورة اقتصادية بل أيضا رابطة اجتماعية تؤسس لأنماط من التضامن داخل المجتمع.(Durkheim, 1893)

1. إميل دوركايم: حياة ومسار علمي

ولد دوركايم سنة 1858 في إقليم اللورين الفرنسي وتوفي سنة 1917، حيث تميز مساره العلمي بمحاولة بناء علم اجتماع قائم على أسس منهجية صارمة، تعكس الطابع "العلمي" للظاهرة الاجتماعية كما هو حال العلوم الطبيعية، وبدلا من النظر إلى المجتمع كمحصّلة للفرد، سعى دوركايم لفهم المجتمع من خلال تحليل البنى التي تشكّل سلوك الأفراد وتضبطه، ومن بين أبرز مؤلفاته التي أسست للسوسيولوجيا العلمية هي :*تقسيم العمل الاجتماعي* (1893)، *قواعد المنهج السوسيولوجي* (1895)، *والانتحار* (1897)، وكلها تعد مصادر تأسيسية في علم الاجتماع الوظيفي.(Durkheim, 1895; Biyati)

2. التضامن الاجتماعي: بين الآلي والعضوي

أ- التضامن الآلي

يفترض دوركايم أن المجتمعات التقليدية، حيث يسود التشابه البنيوي بين الأفراد، ترتكز على ما سمّاه "التضامن الآلي(Mechanical Solidarity) "، هذا النوع من التضامن ينبني على التجانس الثقافي والديني، حيث تكون الجماعة موحدة من خلال نسق مشترك من المعتقدات والقيم، فالفرد في هذه المجتمعات يذوب في الكل الاجتماعي، ولا يملك هوية فردية متميزة، وتعد العقوبات الصارمة والمؤسسات الدينية أدوات ضبط تُحافظ على هذا التجانس.(Durkheim, 1893)

ب- التضامن العضوي

في المقابل، يظهر "التضامن العضوي (Organic Solidarity) "في المجتمعات الحديثة نتيجة التمايز المتزايد في تقسيم العمل، وهنا لا تقوم الرابطة الاجتماعية على التشابه، بل على التخصص والاعتماد المتبادل بين الأفراد، فكل فرد يملك وظيفة محددة تكمل وظائف الآخرين، ما ينتج شبكة من العلاقات تقوم على التكامل والتنسيق لا على التشابه، وبالتالي، تصبح العلاقات الاجتماعية أكثر عقلانية ومؤسسية، ويظهر نوع جديد من الضبط الاجتماعي يعتمد على القانون التعاقدي بدل القيم الجمعية التقليدية (Durkheim, 1893).

3. التحليل الدوركايمي: الفهم السوسيولوجي للبنية الاجتماعية

اعتمد دوركايم مقاربة وظيفية للواقع الاجتماعي، حيث اعتبر أن كل عنصر اجتماعي يؤدي وظيفة تساهم في الحفاظ على التوازن العام للمجتمع، فقد رأى أن التضامن - سواء كان آليا أو عضويا - لا يمثل مجرد علاقة بين الأفراد، بل هو انعكاس لبنية اجتماعية أوسع تنتظم داخلها العلاقات وتحدد بها الأدوار، ويتجلى هذا التصور الوظيفي في تأكيده على أن المجتمعات لا يمكن أن تستمر دون شكل من أشكال التماسك

الاجتماعي، لأن غياب التضامن يؤدي إلى "الأنوميا" أو الفوضى الاجتماعية (Durkheim, 1897).

4. الشعور الجمعي: دور أساسي في بناء المجتمع

أبرز دوركايم دور "الشعور الجمعي (Conscience collective) "بوصفه المحور المركزي الذي تنتظم حوله العلاقات الاجتماعية، إذ يمثل مجموع المعتقدات والمعايير المشتركة بين أعضاء المجتمع، ففي المجتمعات التقليدية، يكون هذا الشعور الجمعي طاغيًا ويشمل كافة مناحي الحياة، بينما ينحسر نسبيا في المجتمعات الحديثة لصالح بروز الوعي الفردي. ومع ذلك، يظل الشعور الجمعي قائما من خلال تمظهرات جديدة مثل القوانين، الأعراف المدنية، والتعليم النظامي، التي تعيد إنتاج النظام الاجتماعي بشكل عقلاني.(Durkheim, 1895)

يمكن القول إن نظرية دوركايم حول التضامن الاجتماعي تمثل نموذجا تفسيرا عميقا لبنية المجتمع وتحولاته، فقد استطاع، من خلال التمييز بين التضامن الآلي والعضوي، أن يفسر ديناميات الانتقال من المجتمعات التقليدية إلى الحديثة، كما أن تحليله للشعور الجمعي بوصفه بنية فوق فردية يعكس تصوره للمجتمع ككل عضوي متماسك، حيث تتكامل الوظائف والمواقع وفق نسق قيمي مشترك، وهذه الرؤية الدوركايمية تظل ذات راهنية في تحليل ظواهر التغير الاجتماعي، خاصة في ظل تزايد التفكك القيمي والتخصص الوظيفي في المجتمعات المعاصرة.

القسم الثاني :سوسيولوجيا الانتحار: قراءة نظرية وو اقعية

1. دراسة الانتحار: تحليل سوسيولوجي لدوركايم

تعد ظاهرة الانتحار من أكثر الظواهر الاجتماعية تعقيدا وتعددا في التفسيرات، وقد شكّلت محورا مركزيا في أعمال العالم السوسيولوجي الفرنسي إميل دوركايم (Émile Durkheim)، الذي يعد أحد المؤسسين الكلاسيكيين لعلم الاجتماع الحديث، حيث

تميزت مقاربة دوركايم للانتحار بكونها محاولة لفصل التحليل السوسيولوجي عن الطروحات النفسية والدينية والفلسفية التي سبقتها، فطرح منظورا علميا يعتمد على مبدأ "الوقائع الاجتماعية (faits sociaux) "لفهم دوافع السلوك الانتحاري داخل النسق الاجتماعي.(Shafiq, 1990)

لقد رفض دوركايم الطابع الفردي للانتحار باعتباره "فعلا شخصيًا"، مؤكدا أن هذا السلوك لا يمكن فصله عن البنية الاجتماعية الكلية التي ينتمي إليها الفرد، فبالنسبة له، المجتمع لا يكتفي بتحديد الضوابط السلوكية، بل إنه ينتج أيضا أنماطا من السلوك الجمعي من خلال مستويات الاندماج والسيطرة، وهما عنصران أساسيان لفهم التفاوت في معدلات الانتحار بين الجماعات والمجتمعات .

2. البعد الإمبريقي للظاهرة: بين المعطى الإحصائي والسياق الاجتماعي

في كتابه الكلاسيكي *Le Suicide*، الذي صدر سنة 1897، اعتمد دوركايم منهجا وصفيا تحليليا قائما على دراسة البيانات الإحصائية لانتحارات سجلتها السلطات في عدد من الدول الأوروبية، خاصة فرنسا، ألمانيا، وسويسرا، وقد اتخذ من هذه البيانات وسيلة لتفنيد الفرضيات النفسية والبيولوجية والدينية السائدة آنذاك، وقد كانت مساهمته جوهرية في تأكيد أن الانتحار، مهما بدا فرديا، يخضع لقوانين اجتماعية قابلة للدراسة والتحليل.(Bayati, 2002)

فمن خلال مقارنة المجتمعات، لاحظ دوركايم أن معدلات الانتحار ترتفع لدى الأفراد الذين يفتقرون إلى روابط اجتماعية متينة، مثل البروتستانت مقارنة بالكاثوليك، أو العازبين مقارنة بالمتزوجين، وهذه الملاحظات لم تفسر من منطلق ديني أو أخلاقي، بل من خلال ضعف التكامل الاجتماعي(social integration) ، الذي يمثل عنصرا حاسما في نظرية دوركايم.

3. المفاهيم المحورية في نظرية دوركايم

بنى دوركايم تحليله على مفاهيم مركزية تعكس علاقات الفرد بالمجتمع، ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

أ.الانتحار الأناني: تأملات في ضعف الاندماج الاجتماعي واغتراب الذات

يندرج الانتحار الأناني (Egoistic Suicide) ضمن التصنيفات الأربعة التي قدمها *إميل دوركايم* في عمله الكلاسيكي حول *الانتحار*، بوصفه نتاجا لانحلال الروابط الاجتماعية وضعف اندماج الفرد داخل الجماعة، ووفقا لدوركايم، يحدث هذا النوع من الانتحار حين يجد الفرد نفسه معزولا عن القيم المشتركة والسلطة الأخلاقية التي تفرضها الجماعة، مما يدفعه إلى الشعور بالفراغ الوجودي .

ويعد هذا الشكل من الانتحار تعبيرا عن حالة من *الأنومية الاجتماعية الذاتية*، حيث لا يجد الفرد مبررا موضوعيا لوجوده داخل مجتمع فقد فيه الشعور بالانتماء، وهذا الانقطاع عن المنظومة الاجتماعية لا يمثل فقط انفصالا عن الآخرين، بل عن المعنى ذاته، مما يجعل *الانتحار* في هذه الحالة ليس مجرد فعل فردي بل ظاهرة اجتماعية تنجم عن انعدام التكامل الاجتماعي (فايد، 2004).

استنادا إلى مقارنة إحصائية دقيقة لمعدلات الانتحار في أوروبا، أظهر دوركايم أن الانتماء الديني يؤثر في مستويات التكامل الاجتماعي، حيث سجّل *الكاثوليك* معدلات انتحار أقل من البروتستانت، وهو ما عَزاه إلى الطابع الجماعي الأكثر رسوخا في الكاثوليكية، مقارنة بالنزعة الفردية في البروتستانتية(Durkheim, 1897/2002) ، ويعد هذا الاستنتاج بمثابة تأكيد على أن الدين لا يؤدي دوره فقط كنسق اعتقادي، بل كمنظومة تنظيمية تحد من سلوكيات العزلة.

وقد كانت حالة *اليهود* لافتة في تحليلات دوركايم، إذ رغم تعرضهم لتهميش اجتماعي، فإنهم يمتلكون شبكة دعم داخلية قوية تفرض انضباطا أخلاقيا واجتماعيا

صارما، مما يجعل من الانتحار خيارا أقل حضورا بينهم، حيث يظهر هذا المثال كيف يمكن للهامش الاجتماعي أن يعيد إنتاج روابط تكامل داخلية تمنح الفرد سندا في مواجهة التفكك.

وفي المجتمعات الصناعية، أكد دوركايم أن هيمنة الفلسفة الليبرالية، التي تمجد الحرية الفردية على حساب الجماعة، تفضي إلى تآكل البنى التقليدية للتماسك الاجتماعي، مما يؤدي إلى تصاعد معدلات الانتحار، لا سيما بين الأفراد ذوي الاستقلالية الاقتصادية والمهنية، كأصحاب الأعمال الحرة والطبقات الميسورة ، وفي هذه المجتمعات، يصبح الفرد غريبا عن الآخرين، وتتحول الحياة إلى تجربة ذاتية معزولة، لا تشفع لها علاقات الانتماء أو الإحساس بالمسؤولية المشتركة.

وقد أشار دوركايم إلى أن الزواج، وخصوصا الأبوة، يؤدي إلى تعميق التكامل الاجتماعي، عبر ربط الفرد بشبكة من الالتزامات الاجتماعية والعاطفية، مما يخلق حاجزا نفسيا ضد الانسحاب من الحياة، وهنا يبرز دوركايم أهمية العلاقة بين *البنية الأسرية* ومعدلات الانتحار، إذ يرى أن الأبوة تحمي من الانتحار أكثر من الزواج فقط، لأن الأطفال يمثلون عاملا تكامليا إضافيا يعزز من الإحساس بالهدف والواجب(Durkheim, 1897)

بذلك، يبرهن دوركايم أن *الانتحار الأناني* لا يُفهم من منطلق سيكولوجي صرف، بل هو انعكاس مباشر لمستوى التكامل الاجتماعي، ومدى اندماج الفرد في الحياة الجمعية، وعليه، فإن معالجة ظاهرة الانتحار لا تتم من خلال الخطاب الأخلاقي فقط، بل تستدعي بناء شبكات دعم اجتماعية ومؤسسات تعيد دمج الأفراد في الفضاء الاجتماعي.

ب.الانتحار الإيثاري: الذوبان في الجماعة وفقدان الذات

يظهر الانتحار الإيثاري (Altruistic Suicide) في المجتمعات التي يتمتع فيها التضامن الاجتماعي بقوة مهيمنة، بحيث يفقد الفرد استقلاليته أمام الضغوط الجماعية، وفي هذه الحالة، يكون الانتحار تعبيرا عن الامتثال الصارم للتقاليد والأعراف،

وليس نتيجة لمعاناة نفسية أو اغتراب، بل انخراطا كاملا في منطق الجماعة التي تقدّم مصلحة الكل على الذات.

يضرب دوركايم مثالًا بالمجتمعات العسكرية أو الدينية المتطرفة، حيث يصبح الموت "شرفا" أو "تضحية مطلوبة"، مثل الانتحار الطقوسي في بعض الثقافات التقليدية، وفي هذه المجتمعات، ينظر إلى الفرد بوصفه أداة لخدمة القيم الجمعية، ما يؤدي إلى تراجع الوعي الفردي لصالح الانصهار في الجماعة .(Durkheim, 1897) وهكذا، يتجسد الانتحار الإيثاري كشكل من أشكال الامتثال المفرط للمجتمع، في مقابل الانتحار الأناني الذي ينتج عن نقص الارتباط الاجتماعي.

ت.الانتحار اللامعياري: التفكك القيمي وتمزق البنية المجتمعية

أما الانتحار اللامعياري(Anomic Suicide) ، فيرتبط مباشرة بحالة التفكك القيمي والخلل في النظام الاجتماعي، وهي حالة يصفها دوركايم بـ"الأنومي" أو فقدان المعايير، ويحدث هذا النوع من الانتحار حين يتعرض المجتمع لأزمات اقتصادية أو تحولات فجائية (مثل الكساد أو الازدهار المفرط)، ما يؤدي إلى فقدان التوازن بين طموحات الفرد والقيود الاجتماعية.

تنتج هذه الحالة من انقطاع الروابط الناظمة للسلوك، حيث لا يعود للفرد أفق واضح للضبط أو التوجيه، ومع تصدع المرجعيات الاجتماعية، يشعر الفرد بالتيه والاضطراب، ويصبح سلوك الانتحار محاولة للهروب من واقع لا يقدّم إجابات، يشدد دوركايم على أن هذا النوع من الانتحار يكثر بين الفئات التي تتأثر مباشرة بالتغيرات البنيوية، كرجال الأعمال خلال الأزمات الاقتصادية أو الأزواج بعد الطلاق المفاجئ (فايد، 2004).

د. الانتحار الجبري (Fatalistic Suicide) :

هو أقل أشكال الانتحار ورودا في كتابات دوركايم، ويحدث عندما يتعرض الفرد لقمع اجتماعي شديد لا يتيح له أي هامش للحرية أو تحقيق الذات، كما في حالة العبيد أو السجناء.

جدول مقارنة بين أنواع الانتحار الأربعة عند إميل دوركايم

نوع الانتحار	الخصائص الأساسية	السبب الاجتماعي الرئيسي	مثال توضيحي
الأناني	ضعف الروابط الاجتماعية، عزلة الفرد، غياب الانتماء الجماعي	ضعف الاندماج الاجتماعي	شخص يعيش بمفرده، بدون أسرة أو مجتمع داعم، ويشعر بالفراغ والمعنى.
الإيثاري	قوة الانتماء للجماعة لدرجة التضحية بالنفس من أجلها	قوة الاندماج الاجتماعي المفرط	الجندي الذي ينتحر من أجل "شرف الجماعة" أو في طقوس الانتحار الجماعي.
اللامعياري	تفكك المعايير الاجتماعية، غياب التوجيه، ارتباك القيم بسبب تغيرات اجتماعية سريعة	ضعف الضبط الاجتماعي	رجل أعمال يفقد ثروته فجأة بسبب أزمة اقتصادية ويفشل في التكيف مع الوضع.
الجبري	ضغوط شديدة من المجتمع تجبر الفرد على إنهاء حياته دون إرادة حرة	قوة الضبط الاجتماعي المفرط	عبد يُجبر على الانتحار نتيجة القيود الصارمة أو القهر الاجتماعي.

4. العلاقة بين البنية الاجتماعية والانتحار: نحو فهم مركب

ترى نظرية دوركايم أن الانتحار يشكل انعكاسا للاختلال في العلاقة بين الفرد والمجتمع، فحين تضعف روابط الانتماء، أو تنهار المنظومة القيمية، يفقد الفرد شعوره بالهوية والانتماء، ويصبح عرضة للسلوك الانتحاري، وهذا ما يجعل الظاهرة، في جوهرها، ليست مرضا نفسيا، بل مؤشرا على خلل بنيوي في التنظيم الاجتماعي (Parsons, 1964).

لقد كانت عبقرية دوركايم في إبراز أن المجتمع لا ينظم الحياة فحسب، بل يتحكم في الموت أيضًا، من خلال مدى قدرته على إدماج الأفراد في نسيجه الاجتماعي، أو العكس، دفعهم نحو الهشاشة النفسية نتيجة التفكك الاجتماعي.(Freund, 1976)

5. النقد والتأثيرات المعاصرة

بالرغم من ريادة دوركايم، تعرضت نظريته لعدة انتقادات، خصوصا من التيارات البنيوية والنقدية، التي اعتبرت تفسيره للانتحار اختزاليا، لأنه ركز على المعايير الجماعية وأغفل الديناميكيات النفسية والفردية، ومع ذلك، تبقى نظريته مرجعا أساسيا في علم الاجتماع الطبي والاجتماعي، وقد أعاد علماء مثل دوغلاس (1967) وآتكينسون (1978) فتح النقاش حول المعاني الذاتية للانتحار، مؤكدين أهمية المزج بين التحليل السوسيولوجي والتأويل الذاتي للفاعلين الاجتماعيين.

6. المنهج الإحصائي لدوركايم ودور البنية الاجتماعية في تفسير ظاهرة الانتحار

في إطار تحليله السوسيولوجي لظاهرة الانتحار، قدّم إميل دوركايم نموذجا منهجيا رائدا يعدّ من أبرز تطبيقات المقاربة الوضعية في علم الاجتماع، ففي مؤلفه الشهير *Le Suicide* (1897)، استند دوركايم إلى منهج إحصائي صارم، جمع من خلاله بيانات كمية عن معدلات الانتحار في عدد من الدول الأوروبية، ساعيا إلى ربطها بالبنى الاجتماعية وليس بالعوامل النفسية أو الفردية كما كان سائدا في عصره، وقد مثل هذا التوجه لحظة تحول إبستمولوجي في العلوم الاجتماعية، حيث أصرّ دوركايم على أن الظواهر الاجتماعية لا تفسَّر إلا من خلال فهم *الوقائع الاجتماعية* (Les faits sociaux)بوصفها كيانات مستقلة ومؤثرة على السلوك الفردي .

رأى دوركايم في الانتحار انعكاسا لفشل المجتمع في خلق سياقات اندماجية فعّالة، معتبرا أن التفاوت في معدلات الانتحار بين المجتمعات لا يعود إلى الاختلافات النفسية أو البيولوجية، بل إلى مدى قوة أو ضعف الروابط الاجتماعية والمؤسسات الجماعية، وقد ميّز بين أنواع مختلفة من الانتحار – الأناني، الإيثاري، الفوضوي – ليبرهن على أن

الانتحار ظاهرة اجتماعية مركّبة تتجذر في طبيعة التفاعلات بين الفرد والمجتمع (Thompson, 1982).

ويخلص دوركايم إلى أن المجتمعات الصناعية، التي تتسم بتفكك النُظم التقليدية وازدياد النزعة الفردانية، تنتج بيئة اجتماعية تتآكل فيها روابط التضامن، مما يجعل الأفراد أكثر عرضة للاغتراب والانفصال عن أنساق الدعم الجمعي، وهي حالة تفضي إلى ارتفاع معدلات الانتحار بوصفها تعبيرا مأساويا عن هذا الانفصال البنيوي.

7. التكامل والتضامن الاجتماعي: الوقاية من الانتحار والتفكك

ينطلق دوركايم في تحليله من فرضية مركزية مفادها أن *التكامل الاجتماعي* (Social Integration) يشكّل الضامن الأساس لصحة المجتمع واستقراره، فعندما تنخفض درجة هذا التكامل، ويضعف الإحساس بالانتماء، يصبح الفرد في مواجهة مباشرة مع صراعات داخلية تنجم عن العزلة واللامعيارية، وهي شروط بنيوية تؤدي إلى اضطرابات نفسية وسلوكية قد تصل حد الانتحار .(Durkheim, 1897) ومن هنا، لا يرى دوركايم أن الانتحار مجرد فعل ذاتي، بل يعتبره مؤشرا على خلل في البناء الجمعي.

وقد تطوّر هذا التحليل لاحقًا في أعمال رواد علم الاجتماع والانثروبولوجيا، مثل هنري شورت (Henry Short) الذي طوّر فرضية "التكامل الوقائي"، معتبرا أن المجتمعات التي تمتلك آليات تضامن قوية تكون أكثر قدرة على احتواء أعضائها، ومنعهم من السقوط في هاوية الاغتراب والانهيار النفسي، فالتضامن، بحسب هذا المنظور، لا يقتصر على مشاعر التعاطف، بل هو بنية وظيفية تضمن استقرار النظام الاجتماعي (Short & Lester, 1967).

وبذلك، يصبح دور التكامل والتضامن الاجتماعي في الحد من ظاهرة الانتحار ليس مجرد نتيجة تحليلية، بل مدخلا نظريا يربط بين السلوك الفردي والمعطى البنيوي، ويؤكد على مسؤولية المجتمع في إعادة إنتاج آليات الانتماء والمرافقة والدعم، لضمان تماسك نسيجه الداخلي.

8. الدين والتنظيم الاجتماعي: أدوات للوقاية من الانتحار

يولي دوركايم أهمية خاصة لدور الدين بوصفه مؤسسة اجتماعية ذات فاعلية وقائية ضد ظاهرة الانتحار، فقد لاحظ من خلال تحليله الإحصائي أن معدلات الانتحار تختلف باختلاف الانتماء الديني، حيث وجد أن المجتمعات البروتستانتية تسجّل معدلات أعلى من الانتحار مقارنة بالمجتمعات الكاثوليكية، ويفسر هذا التفاوت بمدى *الاندماج الاجتماعي* الذي توفره كل ديانة، وليس بالجوهر العقدي أو الروحي للعقيدة نفسها، فالكاثوليكية، بحسب دوركايم، توفّر نمطا من التنظيم الديني القائم على الضبط الجماعي والتراتبية، بينما تمنح البروتستانتية للفرد مساحة أكبر من الاستقلال الفكري، وهو ما قد يؤدي إلى ضعف الروابط الجمعية وازدياد احتمالية العزلة (Durkheim, 1897).

هذا التحليل ينسجم مع تصوره العام حول أهمية الأطر التنظيمية في حياة الأفراد، إذ يعتبر أن التنظيم الاجتماعي التقليدي – بما في ذلك الدين، الأسرة، والعرف – يمثّل شبكة رمزية ومؤسساتية تسهم في *توجيه السلوك وضبط الرغبات*، وتحدّ من حالات الفوضى الداخلية التي قد تؤدي إلى اللامعيارية(Anomie) ، وبذلك، لا يكون الدين مجرّد منظومة عقائدية، بل نظاما اجتماعيا وظيفيا يوفّر الإحساس بالانتماء والمعنى، ويعزز التضامن في مواجهة تفكك البنى الحديثة.

وقد تطور هذا الفهم لاحقًا في إطار السوسيولوجيا الدينية، حيث أبرز باحثون مثل بيتر بيرغر (Peter Berger) وتوماس لوكمان (Thomas Luckmann) كيف أن الدين يؤدي وظيفة "تأطير العالم(World-construction) "، ويوفّر نظاما من المعاني الجماعية يقي الأفراد من الانزلاق في الفراغ الوجودي، كما دعّم باحثون معاصرون هذه الأطروحة من خلال دراسات ميدانية تؤكد على العلاقة العكسية بين التديّن وشيوع السلوك الانتحاري، خاصة في البيئات التي ما زالت تحتفظ ببنية تقليدية متماسكة.

بالتالي، يؤكّد منظور دوركايم على أن ضعف التنظيم الاجتماعي – سواء عبر تفكك الأسرة، أو فقدان الوظائف الوقائية للدين – يؤدي إلى فقدان البوصلة الأخلاقية للفرد، مما يفتح الباب أمام الميول الانتحارية بوصفها رد فعل على غياب المعنى وتفكك الإطار الجمعي.

9. من دوركايم إلى باومان: تحوّلات في فهم الانتحار بين البنية والمعنى

بينما فسّر دوركايم الانتحار كنتيجة لاختلال التوازن بين الفرد والمجتمع، وركّز على قوى التكامل والتنظيم الاجتماعي(Durkheim, 2002) ، فإن دوغلاس (Douglas, 1967) انتقد هذا الطرح، معتبرا أن التفسيرات الكمية تقصي المعاني الذاتية للانتحار، وأنه لا يمكن فهم هذا السلوك إلا بالعودة إلى روايات الأفراد أنفسهم، ما يعبّر عن منظور تفسيري-ظاهراتي. من جهته، يرى باومان (Bauman, 2000) أن ظاهرة الانتحار في المجتمعات الحديثة لا ترتبط فقط بضعف التكامل بل بتفكك الهويات وضياع المعنى في ظل الحداثة السائلة، في تحليل أقرب إلى النظريات ما بعد الحداثية.

أما التفاعلية الرمزية كما عرضها بلومر(Blumer, 1969) ، فتنظر إلى الانتحار كنتيجة لتفاعلات اجتماعية تحمل دلالات، حيث يتشكل المعنى من خلال التفاعل، ما يجعل الانتحار انعكاسًا لهوية مكتسبة أو لوصمة اجتماعية. بالمقارنة، فإن نظرية دوركايم تنزع إلى الحتمية البنيوية، بينما المقاربات التفسيرية تمنح أولوية للفرد والمعنى.

جدول مقارنة بين المقاربات النظرية للانتحار

البعد النظري	المفهوم المركزي للانتحار	مصدر التفسير	نوع المقاربة	أمثلة أو أدوات تحليل
دوركايم (Durkheim)	خلل في التكامل/الضبط الاجتماعي	بنيوي - مجتمعي	تفسير سوسيولوجي كلاسيكي	نسب الانتحار، فئات اجتماعية
دوغلاس (Douglas)	معنى الانتحار من وجهة نظر الفاعل	ذاتي - ظاهراتي	تفسير نوعي فردي	تحليل وثائق، مذكرات منتحرين

باومان (Bauman)	فقدان المعنى في الحداثة السائلة	سوسيولوجي نقدي - ما بعد حداثي	نقد حداثي ثقافي	التشظي، الهوية، القلق الوجودي
بلومر (Blumer)	المعاني المتشكلة عبر التفاعل والوصم	تفاعلي رمزي	سوسيولوجيا تفسيرية	سلوك الأفراد، تفاعل اجتماعي

10. القراءة الواقعية: بين المقاربة الغربية والسياق العربي – الجزائري

رغم أن الأدبيات الغربية، خاصة من خلال أعمال دوركايم ودوغلاس وباومان، قدّمت أطرا تحليلية متينة لفهم الانتحار، فإن الاقتصار على هذه النماذج دون التطرّق إلى السياق العربي أو المحلي قد يضعف من قدرة التحليل على تفسير الظاهرة في بيئات تختلف ثقافيا واجتماعيا، ففي العالم العربي، ورغم الندرة النسبية في الدراسات، إلا أن بعض الباحثين قد سعوا لتفكيك ظاهرة الانتحار في ضوء الخصوصيات السوسيو-ثقافية.

فعلى سبيل المثال، يرى عبد الباسط بوشناق (2006) أن الانتحار في المجتمع الجزائري يرتبط أساسا بحالات القهر الاجتماعي، والبطالة، وانسداد الأفق أمام الشباب، حيث يصبح الانتحار أحيانا "لغة احتجاجية صامتة". ويذهب علي الكنز (1993) إلى أن الانتحار لا يمكن عزله عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عرفها المجتمع الجزائري منذ الثمانينات، والتي أضعفت الروابط الأسرية وجعلت الفرد في مواجهة هشاشة متزايدة.

وفق تقرير صادر عن الديوان الوطني للإحصائيات في الجزائر(ONS, 2021) ، فإن معدلات الانتحار تسجّل تباينا بين المناطق، حيث ترتفع في ولايات الهضاب والجنوب، مع تزايد في صفوف الشباب، خاصة الذكور، وتشير تقارير طبية واجتماعية إلى أن الانتحار بالاحتراق الذاتي أو عبر وسائل عنيفة أصبح أكثر انتشارا، ما يعبّر عن شحنة رمزية واجتماعية قوية خلف هذا الفعل.

وبالتالي، فإن إدراج القراءة الواقعية للسياق المحلي يغني التحليل ويجعله أكثر التصاقًا بالتجربة المعيشة، خاصة إذا ما أخذت بعين الاعتبار عوامل مثل: الوصمة الاجتماعية، ضعف شبكات الدعم، غياب الأطر النفسية، والفراغ القيمي.

القسم الثالث: من دوركايم إلى ماركس وفيبر: مقارنة نظرية

1. إميل دوركايم: إميل دوركايم والانتحار كتفكك اجتماعي

يعد إميل دوركايم أحد المؤسسين الرئيسيين للسوسيولوجيا الحديثة، وقد تناول ظاهرة الانتحار في دراسته الشهيرة "الانتحار: دراسة سوسيولوجية" (1897) باستخدام منهج إحصائي ووظيفي، ووفقًا لدوركايم، فإن الانتحار ليس مجرد فعل فردي بل هو نتاج للظروف الاجتماعية المحيطة بالفرد، حيث يفترض أن المجتمعات التي تفتقر إلى التكامل الاجتماعي والتضامن بين أفرادها تزيد من احتمالية الانتحار، ويقسم دوركايم الانتحار إلى أنواع أربعة: الأناني، الإيثاري، الفوضوي، واللامعياري، حيث يكون الانتحار الأناني نتيجة لغياب الروابط الاجتماعية والاندماج الاجتماعي الضعيف، مما يؤدي إلى العزلة النفسية والاجتماعية.

رؤية دوركايم تركز على الأبعاد البنيوية للمجتمع، حيث يعكس الانتحار فشل المجتمع في دمج أفراده بشكل فعّال ضمن شبكة من الروابط الاجتماعية المتينة، فالمجتمعات الصناعية، وفقا له، تعد أكثر عرضة للانتحار بسبب تزايد الفردية وغياب التضامن.

2. ماكس فيبر والانتحار كفهم ذاتي

في مقابل دوركايم الذي ركز على البنية الاجتماعية، جاء ماكس فيبر بمقاربة أكثر فهمية وتأويلية، ففيبر كان مهتما بفهم المعاني الذاتية التي يعطيها الأفراد لأفعالهم، بما في ذلك الانتحار، حيث يرى فيبر أن الأفراد لا يتصرفون فقط استجابة للعوامل الاجتماعية البنائية، بل يعطون معاني لأفعالهم بناءا على الدوافع الفردية، وبالنسبة للانتحار، قد

يرى فيبر أن الدوافع الدينية (مثل تأثير البروتستانتية على السلوك الاجتماعي) تلعب دورا في تحديد القرارات الفردية حول الحياة والموت.

ففي سياق الانتحار، سيفسّر فيبر الظاهرة من خلال الأنساق الدينية والثقافية، مثل تأثير الأخلاق البروتستانتية التي تركز على الجهد الفردي، والتي قد تقود بعض الأفراد إلى الإحساس بالتوتر الداخلي أو العجز مما يؤدي إلى الانتحار، حيث يعتبر فيبر الانتحار رد فعل على صراع داخلي حول المعنى الشخصي للحياة وليس مجرد نتيجة لغياب التكامل الاجتماعي.

3. كارل ماركس والانتحار كنتيجة للطبقية

من جهة أخرى، جاء كارل ماركس بنظرة مادية تركز على الظروف الاقتصادية والطبقية كعوامل رئيسية في تفشي الانتحار في المجتمعات الرأسمالية، وبالنسبة لماركس، يشكل الاغتراب أحد المفاهيم المركزية لفهم ظاهرة الانتحار، حيث يعبر الاغتراب عن حالة الفصل بين الفرد وعمله، بين الفرد ومجتمعه، وبين الفرد وذاته، وفي المجتمعات الرأسمالية، حيث يمر الفرد في حالة من الاستغلال الاقتصادي، يصبح أكثر عرضة للمشاعر باللاجدوى والفشل، مما قد يؤدي إلى الانتحار.

في ظل الهيمنة الرأسمالية، ينظر إلى الانتحار كأحد أشكال الاغتراب الاجتماعي الناتج عن التفكك بين الفرد والمجتمع، حيث يميل ماركس إلى تفسير الانتحار ليس كفعل فردي فقط، بل كنتيجة مباشرة لتفكك النظام الاجتماعي الرأسمالي الذي يغذي التفاوت الطبقي والاستغلال، مما يؤدي إلى اضطراب نفسي واجتماعي يقود بعض الأفراد إلى إنهاء حياتهم.

4. مقارنة نظرية:

- دوركايم يربط الانتحار ارتباطًا وثيقًا بالتكامل الاجتماعي، معتقدا أن الفشل في دمج الأفراد في النسيج الاجتماعي يؤدي إلى تفكك العلاقات وانحسار التضامن، انتحار الأفراد يعكس، بالنسبة له، العجز عن الانتماء إلى المجتمع.
- فيبر يركّز على المعاني الفردية التي يضعها الأفراد على حياتهم، ويرى أن الانتحار يمكن أن يكون ناتجا عن قلة المعنى الشخصي في الحياة، خصوصا في المجتمعات التي تعتمد على المعايير الأخلاقية المتزمتة أو في حالات الأزمات النفسية العميقة.
- ماركس يقدم تفسيرا ماديا-اقتصاديا، حيث يعد الانتحار نتيجة للاستغلال الطبقي والاغتراب الذي يعاني منه الأفراد في المجتمعات الرأسمالية.

5. التفسير السوسيولوجي الحديث:

من خلال هذه المقارنات، نجد أن دوركايم يُقدّم تفسيرا بنيويا قائما على التفاعلات الاجتماعية، بينما يتخذ فيبر موقفا فهيميا يركز على الأبعاد الذاتية، بينما ماركس يضع الانتحار ضمن سياق التفاوت الطبقي والاستغلال الاقتصادي، وفي عصرنا الحالي، قد تكون العوامل المتداخلة بين هذه الرؤى هي الأكثر وضوحا، حيث يمكننا أن نجد أن التفكك الاجتماعي و الفردية المفرطة قد تساهم في الانعزالية النفسية، في حين أن الأزمات الاقتصادية قد تخلق شعورا بالاغتراب، مما يزيد من معدلات الانتحار في المجتمع.

الفصل الرابع :المهاجرون والهوية: بين مدرسة شيكاغو والبحث الميداني

القسم الأول :المؤسسون: من البحث الميداني إلى الهوية الاجتماعية

1. الفلاح البولندي": بداية البحث الميداني من توماس وزنانيكي

لمحة عن حياة وليام إسحاق توماس

يعد وليام إسحاق توماس أحد الرواد البارزين في السوسيولوجيا، وهو ينتمي إلى الجيل الأول من الباحثين الذين تأثروا بالمدرسة السوسيولوجية في شيكاغو، حيث عرف توماس بتوجهه الميداني الفريد في دراساته الاجتماعية، وبفضله أصبحت الأبحاث الميدانية جزءا لا يتجزا من منهجيات علم الاجتماع الحديث، ولد توماس في عام 1863 في مدينة أتكينسون بولاية مين، وبدأ مسيرته الأكاديمية في جامعة شيكاغو كأستاذ مساعد في عام 1894، قبل أن يصبح أستاذا مشاركا في عام 1911، إلا أن توماس كان قد أنجز العديد من دراساته قبل ذلك، وكان قد تأثر بتوجهات الفلسفة وعلم النفس الاجتماعي التي طورها الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر.

تعتبر أعمال توماس من الأعمال التي خرجت عن إطار السوسيولوجيا التقليدية في ذلك الوقت، فبدلا من الاقتصار على النظريات المجردة، كان يولي أهمية كبيرة للواقع الاجتماعي الملموس، ومن بين أهم أعماله هو "الفلاح البولندي: قصة مهاجر" الذي شارك في تأليفه مع فلوريان زنانيكي، والذي صدر عام 1908، حيث ركز هذا العمل على التغيرات الاجتماعية التي يعاني منها المهاجرون، خاصة في السياق الأمريكي، وقد ساهم بشكل كبير في تطوير علم الاجتماع الميداني، حيث قدم توماس وزملاؤه رؤية سوسيولوجية جديدة تعتمد على جمع البيانات الحية من الواقع الاجتماعي.

2. فلوريان زنانيكي ودوره في السوسيولوجيا

أما فلوريان زنانيكي، فقد كان من العلماء البولنديين المؤثرين في تطوير السوسيولوجيا، وكان له دور كبير في تأسيس المعهد البولندي لعلم الاجتماع، عمل مع توماس على توجيه السوسيولوجيا من حيزها النظري إلى التطبيق العملي، مما جعل الأبحاث الميدانية محورا أساسيا في السوسيولوجيا المعاصرة، زنانيكي، الذي كان باحثا متعمقا في فهم النظم الاجتماعية الكبرى، أسهم في دمج الفهم الثقافي والإنساني للسلوك الاجتماعي في دراساته.

في كتاب "الفلاح البولندي: قصة مهاجر"، كان كلا من توماس وزنانيكي قد أظهرا كيف يمكن لتغير السياق الاجتماعي أن يؤثر بشكل عميق على هويات الأفراد وعلى أساليبهم الحياتية، خاصة أولئك الذين ينتقلون من بيئة ثقافية إلى بيئة جديدة، وقد قدم الكتاب تحليلا دقيقا للآثار النفسية والاجتماعية للهجرة، مشيرا إلى معاناة الفلاحين البولنديين الذين جاؤوا إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر.

القسم الثاني: المنهج الميداني وتطبيقاته التحليلية

كانت الدراسة الميدانية في "الفلاح البولندي" نقطة تحول هامة في تاريخ علم الاجتماع، فقد خالف توماس وزنانيكي الفهم السوسيولوجي التقليدي القائم على الاستنتاجات النظرية البحتة، وبدلا من ذلك، اعتمدا على ملاحظة المجتمع المهاجر وتحليل أفراده في سياقهم الاجتماعي الحقيقي، وفي هذه الدراسة، قام الباحثان بجمع البيانات الميدانية من خلال المقابلات الشخصية، وهو منهج تفاعلي يهدف إلى فهم التجربة الإنسانية من خلال التفاعل المباشر مع الأفراد في بيئاتهم الطبيعية.

وقد ساهم هذا المنهج الميداني في تقديم تحليل دقيق لتحولات الثقافة والهوية التي تحدث عندما ينتقل الأفراد من بيئتهم الاجتماعية الأصلية إلى بيئة جديدة، مثل الهجرة من بولندا إلى أمريكا في ذلك الوقت، وفي هذه الدراسة، رأى توماس وزنانيكي أن الأفراد الذين يهاجرون إلى بيئة جديدة يواجهون تحديات كبيرة في التكيف مع الأنماط الثقافية

المختلفة والقيود الاجتماعية الجديدة، كما أشاروا إلى أهمية فهم السلوك الاجتماعي من خلال ما وصفوه بـ"الواقع الاجتماعي الفعلي"، وهو مفهوم رئيسي في منهجهم السوسيولوجي.

1. أثر دراسة "الفلاح البولندي" في تطور السوسيولوجيا

لقد كانت دراسة "الفلاح البولندي" بمثابة نقطة انطلاق لفهم أعمق للمجتمعات المهاجرة والآثار الاجتماعية المترتبة على الهجرة، وهذه الدراسة قد أسهمت في تأسيس مفاهيم مهمة في السوسيولوجيا مثل التكيف الاجتماعي، الهويات الثقافية، والتحولات الاجتماعية التي تواجه الأفراد في مجتمعات متعددة الثقافات، كما أنها ساعدت على دفع السوسيولوجيا نحو أهمية البحث الميداني كأداة لفهم الظواهر الاجتماعية.

من خلال هذه الدراسة، كانت السوسيولوجيا قد بدأت في الخروج من مقارباتها التقليدية التي كانت تقتصر على الفرضيات النظرية إلى منهجية بحثية تركز على الواقع الاجتماعي والتفاعل المباشر مع الأفراد، وبذلك، أرسى توماس وزنانيكي أسس البحث الميداني الذي أصبح لاحقًا سمة بارزة في السوسيولوجيا المعاصرة.

تعد دراسة "الفلاح البولندي" مساهمة هامة في تاريخ علم الاجتماع، حيث غيّرت وجهة النظر السوسيولوجية حول الهجرة والتكيف الاجتماعي، وقد ساعدت هذه الدراسة في تعزيز المنهج الميداني كأسلوب أساسي لفهم الظواهر الاجتماعية، كما أسهمت في نقل السوسيولوجيا من حيز الفكر النظري إلى التطبيق الواقعي، مما جعل علم الاجتماع أكثر ارتباطا بالواقع اليومي للأفراد والمجتمعات، وبذلك، تواصل تأثير توماس وزنانيكي في الأبحاث السوسيولوجية التي تعتمد على التقارب المباشر مع الواقع الاجتماعي لفهم تحولات الحياة البشرية.

2. الفلاح البولندي وبداية البحث السوسيولوجي الميداني

لقد شكلت دراسات "الفلاح البولندي: قصة مهاجر" (1918) التي أجراها وليام توماس وفلوريان زنانيكي إحدى النقاط الفاصلة في تاريخ السوسيولوجيا الأمريكية، حيث ساهمت هذه الدراسة في نقل السوسيولوجيا من كونها تأملات نظرية محضة إلى ممارسة ميدانية واقعية، تعكس فهما عميقا للظواهر الاجتماعية المتعددة والمتنوعة،و في هذا السياق، يتبين أن وليام توماس، إلى جانب روبرت بارك، كان أحد المؤسسين الرئيسيين لمدرسة شيكاغو السوسيولوجية التي اجتهدت في ربط النظرية بالتطبيق الميداني، حيث تعتبر هذه الدراسة بمثابة "شهادة ميلاد السوسيولوجيا الأمريكية الحديثة"، لأنها تجاوزت الأساليب التقليدية للاشتغال على الظواهر الاجتماعية، واعتمدت أساليب ميدانية حية ورصدت الظواهر الاجتماعية في سياقاتها الحقيقية.

3. أبعاد البحث الميداني وأدو اته

قبل أن يتطرق توماس وزنانيكي إلى موضوع الهجرة البولندية، كانت السوسيولوجيا تقف عند حدود التجريد النظري، حيث كانت تفتقر إلى الأدوات الميدانية القادرة على رصد الظواهر الاجتماعية بعمق وواقعية، ولكن من خلال دراسة الفلاح البولندي، بدأ الباحثان في بناء أدوات تحليلية ميدانية، تمثلت في استخدام تقنيات مبتكرة مثل "دراسة الحالة" و"المنهج البيوغرافي"، كما اعتمدوا على مصادر وثائقية غنية، منها الرسائل المتبادلة بين المهاجرين البولنديين وأسرهم في بولندا، والمذكرات الشخصية، وأوراق الجمعيات البولندية الأمريكية، بالإضافة إلى سجلات المحاكم والشرطة، وهذا التنوع في الأدوات البحثية جعل الدراسة أكثر عمقًا وواقعية، حيث قدمت صورة حية ومتنوعة عن حياة المهاجرين البولنديين وتفاعلاتهم داخل المجتمع الأمريكي.

4. تحولات المو اقف الاجتماعية والهجرة

كان الاختيار الكيفي لهذه العينة من المهاجرين البولنديين بمثابة محاولة لفهم المواقف الاجتماعية التي تشكلت جراء التغيرات الهائلة التي طرأت على حياتهم بسبب الهجرة والتحضر، وقد طرح توماس في دراسته مفهومًا جديدًا يمكن أن نعتبره من الركائز الأساسية للسوسيولوجيا الحديثة" :الموقف الاجتماعي"، (المواقف)، بحسب توماس، هي مجموع الانطباعات والتصورات التي يكتسبها الأفراد خلال تفاعلهم مع البيئة الاجتماعية، وهذه المواقف تمثل في النهاية الاستجابات الفردية للمواقف الاجتماعية المتنوعة، وهو ما يعكس التحول الكبير في فهم الظواهر الاجتماعية، حيث يربط توماس بين الظواهر الاجتماعية والعوامل الذاتية للأفراد، بعكس الفهم التقليدي الذي كان يركز على العوامل البيولوجية أو الوراثية.

5. الهجرة والاندماج الاجتماعي

في دراسة "الفلاح البولندي"، يقدم توماس وزنانيكي رؤية عميقة حول التحديات التي واجهها المهاجرون البولنديون عند وصولهم إلى الولايات المتحدة، وتحديدا تلك المتعلقة بالاندماج الاجتماعي والإنصهار الثقافي، وقد اعتبرا أن السلوكيات "الغريبة" التي لوحظت بين المهاجرين كانت تشير إلى اضطراب اجتماعي ناتج عن تعارض القيم الثقافية بين بيئتهم الأصلية في بولندا والبيئة الجديدة في أمريكا، وهذه الظواهر تم تحليلها في ضوء مفهوم "سوء التنظيم" الاجتماعي، حيث يعاني الأفراد في البداية من عدم الاستقرار بسبب التغيير الثقافي والاجتماعي الكبير، لكنهم في النهاية يمرون بمرحلة "إعادة التنظيم"، حيث تبرز أنماط جديدة من التفاعل الاجتماعي والانسجام الجماعي.

6. السياق التاريخي والاجتماعي لشيكاغو

في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت مدينة شيكاغو تمثل مركزًا حيويًا للتحولات الاجتماعية الكبيرة نتيجة لارتفاع موجات الهجرة، وهو ما جعلها بمثابة مختبر اجتماعي لدراسة التغيرات الاجتماعية المرتبطة بالتحضر والهجرة، وكانت

شيكاغو تستقطب مهاجرين من مختلف الجنسيات والثقافات، ما جعلها نموذجا مثاليا لدراسة كيف تتداخل وتتصادم الثقافات داخل بيئة حضرية واحدة، وتحت هذا الإطار، كان توماس وبارك يتساءلان عن قدرة المجتمع الأمريكي على استيعاب هذا التنوع الثقافي وكيفية دمج هذه الأقليات العرقية في نسق اجتماعي مشترك(.(Abdullah, 2023 .)

أ. التحليل النظري وتطور السوسيولوجيا

أثرت دراسة "الفلاح البولندي" بشكل عميق على تطور السوسيولوجيا كعلم ميداني، حيث أضافت بعدا عمليا للتحليل الاجتماعي، كما كانت بمثابة تمهيد لاستخدام المنهج التفاعلي الرمزي في السوسيولوجيا، حيث يتم التركيز على الأبعاد الذاتية التي تحدد سلوك الأفراد في السياقات الاجتماعية، ومن خلال هذا التحليل، بدأ توماس في تقديم رؤية مبتكرة حول السلوك الاجتماعي، الذي لا يتحدد فقط بالظروف البيولوجية أو الاقتصادية، بل بالثقافة والمواقف الاجتماعية التي يتبناها الأفراد.

ب. التمثلات الاجتماعية وتحديد الوضعية

من خلال دراسة التغيرات الاجتماعية التي شهدتها الجالية البولندية في الولايات المتحدة، قدم توماس وزنانيكي رؤى حول التفاعلات الثقافية التي نشأت نتيجة لاحتكاك المهاجرين بثقافات جديدة، وفيما يتعلق بالاندماج الثقافي، أبرزت الدراسة الصراع بين الحفاظ على الهوية الثقافية الأصلية وبين متطلبات الانصهار في المجتمع الأمريكي، وتظهر أهمية هذا الموضوع في فحص الهويات الثقافية وكيفية تغيرها نتيجة للتفاعل مع ثقافات جديدة.

7. التأثيرات المعاصرة والتوجهات البحثية

أصبح التأثير الذي خلفته دراسة "الفلاح البولندي" محوريا في النقاشات السوسيولوجية الحديثة حول الهجرة والاندماج الاجتماعي، فعلى الرغم من مرور أكثر من مئة عام على هذه الدراسة، إلا أنها ما زالت تلهم الأبحاث المعاصرة التي تتعلق بتأثيرات

الهجرة على الهوية والاندماج الاجتماعي، فالأبحاث الحديثة في هذا المجال تُظهر كيف أن الهجرة تساهم في إعادة تشكيل الهويات الثقافية للأفراد، وهو ما يعكس استمرار أهمية الفهم الكيفي للتفاعلات الاجتماعية عبر الزمن(Tariq, 2022) .

وفي سياق تطور الدراسات السوسيولوجية وتنوع أدواتها البحثية، يعتبر وليام توماس من أبرز المفكرين الذين ساهموا بشكل بارز في وضع الأسس النظرية لتفسير الظواهر الاجتماعية من خلال فحص تجارب الأفراد وفهم الواقع الاجتماعي وفقا لوجهات نظرهم الشخصية، حيث كان توماس من الرواد الذين أدخلوا مفهوم "الوضعية" إلى حقل السوسيولوجيا، ليضيف بعدا نفسيا اجتماعيا جديدا لتحليل التفاعلات الاجتماعية، خاصة في ما يتعلق بكيفية تأثر الأفراد بما يدركونه من الواقع وما يعكسونه من تجاربهم الشخصية.

أ. "الوضعية" والتفسير الاجتماعي للو اقع

من خلال عمله مع الفيلسوف فلوريان زينانيكي، طور توماس نظرية "الوضعية" التي تعنى بتفسير واقع المجتمع وفقا لكيفية إدراك الأفراد له، ففي كتاب "الفلاح البولوني" (1927)، يعرض توماس وزينانيكي كيف أن المهاجرين البولنديين في أمريكا لم ينظروا إلى العالم من حولهم على أساس واقع ثابت، بل على أساس تفسيراتهم الذاتية التي تشكلت من تجاربهم الثقافية والدينية والاجتماعية في بولندا، وهذه التفسيرات لم تكن بالضرورة مطابقة للواقع المادي، ولكنها كانت واقعية بالنسبة لهم لأنها استندت إلى تجاربهم الشخصية.

وبذلك، يؤكد توماس في هذا الصدد على أهمية "التعريف الذاتي" الذي يقدمه الفاعل الاجتماعي للواقع، مما يعني أن الأفراد في كل وضعية اجتماعية لا يتعاملون مع الواقع كما هو، بل من خلال فهمهم الخاص المستند إلى خلفياتهم الثقافية وتجاربهم السابقة، وهذه الفكرة تتماهى مع المنهج السوسيولوجي الذي يعترف بالتفاعل بين الأفراد والمجتمع، حيث يؤثر كل طرف في الآخر بشكل ديناميكي.

ب. سوء التنظيم الاجتماعي" و"إعادة التنظيم الاجتماعي"

واحدة من أهم المساهمات التي قدمها توماس وزينانيكي في دراستهما للسلوك الاجتماعي كانت مفاهيم "سوء التنظيم الاجتماعي" و"إعادة التنظيم الاجتماعي"، وهذان المفهومان يمثلان عملية تفسير التغيرات الاجتماعية العميقة التي تحدث عندما يعبر الأفراد عن رفضهم لقيم مجتمعهم التقليدي ويسعون إلى تحقيق هويات جديدة، وفي دراسة الهجرة البولندية، يظهر توماس كيف أن الفلاحين البولنديين الذين هاجروا إلى أمريكا واجهوا "سوء التنظيم الاجتماعي" بسبب الصدمة الثقافية والاجتماعية التي تعرضوا لها، الأمر الذي أدى إلى ظهور حالات من التفكك الاجتماعي وزيادة في النزعات الفردية.

وفي المقابل، فإن "إعادة التنظيم الاجتماعي" تمثل العملية التي يسعى من خلالها الأفراد إلى إعادة تشكيل أنفسهم والتكيف مع القيم والتقاليد الجديدة التي يتبنونها في المجتمع الجديد، وهذا التحول يتطلب وقتا وصبرا، حيث لا يمكن للأفراد أن يتنقلوا من هويتهم التقليدية إلى هوية جديدة دون المرور بتجربة التغيير الاجتماعي العميق، وبالتالي، فإن "إعادة التنظيم الاجتماعي" تعتبر أحد آليات التكيف التي تعتمد عليها المجتمعات لمواكبة التحولات التي تمر بها.

8. أهمية الوثائق الذاتية في البحث الاجتماعي

من أبرز الجوانب التي تميز منهج توماس وزينانيكي هو استخدام الوثائق الذاتية كأداة أساسية في البحث السوسيولوجي، فهما اعتبرا أن الوثائق مثل المذكرات الشخصية، والرسائل، والسير الذاتية، ليست مجرد أدوات لتوثيق المعلومات، بل هي وسيلة لفهم التصورات الشخصية للأفراد عن واقعهم الاجتماعي، ومن هنا، يمكننا أن نرى كيف أن توماس كان يعتبر أن ما يقال في المقابلات أو ما يكتب في الوثائق الشخصية لا يجب أن يُفهم كحقائق موضوعية بقدر ما هو "تعابير" شخصية عن الواقع، وهو ما يمنح الباحثين القدرة على استكشاف أعمق للكيفية التي يفسر بها الأفراد تجاربهم.

ويعتبر هذا المنهج ذا أهمية خاصة في السياقات الاجتماعية المتغيرة، حيث يكون الأفراد في حالة من الصراع بين القيم القديمة والتغيرات الجديدة التي يمرون بها، وبالتالي، لا يقتصر البحث الاجتماعي على السطح الظاهري للظواهر، بل يعمق في تفسير دلالات الأحداث الاجتماعية من خلال نظرة الأفراد الذاتية.

9. تحليل "الفلاح البولوني" باعتباره دراسة رائدة في السوسيولوجيا

إن كتاب "الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا" يعد من أكثر الدراسات السوسيولوجية إبداعا في القرن العشرين، حيث استخدم توماس وزينانيكي في هذا البحث تقنيات البحث الاجتماعي المبتكرة، فقد اعتمدا على تحليل المحتوى للوثائق الشخصية المأخوذة من المهاجرين البولنديين في أمريكا، والتي كانت بمثابة مادة خام لفهم ديناميكيات التغيير الاجتماعي الذي مروا به، ولا يمكننا أن نغفل في هذا الصدد أهمية التحليل الثقافي والسوسيولوجي لهذه الوثائق، إذ أظهرت كيف أن القيم الاجتماعية السائدة في بولندا كانت قد تعرضت للاضطراب عند انتقال الفلاحين إلى بيئة جديدة.

وقد بين توماس وزينانيكي أن الأفراد في هذا السياق لم يتكيفوا فورا مع المجتمع الأمريكي، بل شكلوا مجتمعًا موازٍ يعكس هويتهم الثقافية والروابط الاجتماعية التي فقدوها في المجتمعات التقليدية، وهذا المجتمع الموازي كان بحاجة إلى وقت طويل لتكييف القيم الاجتماعية وفقا للواقع الجديد، مما يؤدي إلى عملية "إعادة التنظيم الاجتماعي."

10. التحولات الاجتماعية في ظل الهجرة

تؤكد الدراسة أن الهجرة ليست مجرد انتقال جغرافي، بل هي تجربة اجتماعية وثقافية تمثل نقطة تحول في حياة الأفراد، وعندما يهاجر الأفراد من مجتمعات ذات ثقافات وقيم ثابتة إلى بيئات جديدة ذات ثقافات وقيم مختلفة، فإنهم يواجهون تحديات كبيرة في كيفية التكيف مع الواقع الجديد، وهذا التكيف، كما أشار توماس وزينانيكي، لا يكون سهلا، بل يتطلب إعادة تنظيم الهويات الاجتماعية وإعادة تفسير القيم

والمعتقدات، وهكذا، يعكس بحث توماس وزينانيكي التحولات الاجتماعية التي تطرأ على المهاجرين في أمريكا، ويظهر تأثير هذه التحولات على حياة الأفراد والجماعات.

القسم الثالث :دراسات ميدانية متقدمة

1. قصة المهاجر "فلاديك"

إن تحليل السيرة الذاتية للمهاجر البولندي "فلاديك"، الذي هاجر من بولندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يعد من الدراسات الرائدة التي ساهمت في توضيح الصعوبات الاجتماعية والنفسية التي يواجهها المهاجرون، ويعتبر كتاب "الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا" الذي أعده وليام توماس وفلوريان زنانيكي من أبرز الأعمال التي تناولت تجربة المهاجرين، حيث قام الباحثان بتقديم وصف تفصيلي لتجربة فلاديك وتفاعلاته الاجتماعية، مع التركيز على العوامل التي تؤثر في مصير المهاجرين خلال انتقالهم إلى بيئات اجتماعية جديدة (توماس وزنانكي، 1927).

اعتمد توماس وزنانكي في دراستهما على الرسائل والوثائق الشخصية التي جمعاها من المهاجرين، بما في ذلك السيرة الذاتية لفلاديك، والتي أسهمت في تعريف مفهوم "النمط الاجتماعي"، ويقصد بهذا المفهوم مجموعة القيم والمواقف التي تحدد وتوجه سلوك الأفراد في بيئاتهم الاجتماعية الجديدة، ومن خلال هذه الدراسة، قدّم الباحثان ثلاثة أنماط اجتماعية رئيسية يمكن أن يتبناها الأفراد في سياق الهجرة، وهي: (توماس وزنانكي، 1927).

1. **النمط التقليدي (البليد):** الشخص الذي يلتزم بالتقاليد الاجتماعية ولا يتفاعل مع البيئة الجديدة إلا من خلال التمسك بالقيم القديمة، حيث يتسم هذا النمط بالامتثال للعرف الاجتماعي السائد، سواء كان المهاجر ينتمي إلى الطبقة البرجوازية أو الطبقات الفلاحية (توماس وزنانكي، 1927)

2. **النمط البوهيمي** :شخص منفتح على التغيير، ولكنه يتكيف بشكل سلبي مع البيئة الجديدة، متأثرا أكثر بمحيطه الاجتماعي أكثر من كونه مبادرا في التغيير (توماس وزنانكي، 1927).
3. **النمط المبدع** :شخص يملك استقلالية فكرية وقيمه الخاصة، يسعى لابتكار حياة جديدة وفق رؤيته الشخصية، مما يجعله قادرا على التكيف بشكل فعال مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في البيئة الجديدة (توماس وزنانكي، 1927).

2. مفاهيم جديدة حول الهوية الاجتماعية والهجرة

على الرغم من أن هذه التصنيفات قد تبدو قديمة في السياق المعاصر، إلا أن توماس وزنانكي كانا يحاولان من خلالها تفسير التفاعل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية الجديدة في ظل موجات الهجرة المكثفة في أوائل القرن العشرين، ويرتكز تفسيرهم على مفهوم "التفاعل الرمزي"، الذي يصف العملية التي من خلالها يقوم الأفراد بتكوين هويتهم وتفاعلاتهم مع المجتمع الجديد استنادا إلى "تحديد الوضعية"، ويعني ذلك أن الأفراد في نفس الظروف قد يتفاعلون بشكل مختلف بناءا على كيفية فهمهم أو تصورهم للوضع الذي يواجهونه (سميث، 2023).

3. التمثلات الاجتماعية و"تحديد الوضعية"

يعكس "تحديد الوضعية "التفاعل بين الفرد وبيئته في سياق اجتماعي ثقافي محدد، ففي حالة فلاديك، لا يمكن القول ببساطة إن مصيره كان محكوما بالبيئة التي نشأ فيها، بل كانت مواقفه وتصوراته حول الهجرة والتحولات الاجتماعية الجديدة هي التي شكلت تجربته، ومن خلال هذه الدراسة، أكّد توماس وزنانكي أن الفرد لا يتفاعل مع البيئة الاجتماعية فقط، بل يساهم في تشكيل الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه، مما يعكس التفاعل بين العوامل الفردية والعوامل الاجتماعية بشكل ديناميكي (سميث، 2023).

4. دور الهجرة في تشكيل الهوية

بالإضافة إلى ذلك، ركّز الباحثان على التأثيرات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها المهاجرون عند انتقالهم من بيئاتهم الأصلية إلى بيئات جديدة، ويواجه الأفراد، مثل فلاديك، صراعا داخليا بين التعلق بالتقاليد الاجتماعية القديمة والرغبة في إعادة تشكيل هويتهم في السياق الاجتماعي الجديد، وعادة ما يتخذ هذا الصراع شكلا من التوترات الاجتماعية التي تتداخل مع محاولاتهم لتحقيق الاندماج أو التفكك الاجتماعي (باسيلي وآخرون، 2022).

5. إسهام توماس وزنانكي في السوسيولوجيا

يعدّ توماس وزنانكي من الرواد في تأسيس البحث السوسيولوجي الميداني، فقد استطاعا من خلال هذا الكتاب أن يقدما منهجا تحليليا ميدانيا يهتم بدراسة حياة الأفراد المهاجرين من خلال وثائقهم الشخصية ورسائلهم، وهذه المقاربة كانت ثورية في حينها، حيث كانت تسهم في رد الفعل على الاتجاهات الوضعية السائدة في أوروبا في تلك الفترة، والتي كانت تركز على دراسة الظواهر الاجتماعية من منظور ثابت وغير متفاعل (توماس وزنانكي، 1927).

وقد طرح توماس وزنانكي في كتابهما أيضا مفهوم "السوسيولوجيا التفاعلية الرمزية"، التي تمثل الإطار الذي يمكن من خلاله دراسة التفاعلات الاجتماعية ضمن بيئات متغيرة، وفي هذا السياق، يعتبر تأثيرهم على دراسات سوسيولوجيا الهجرة والتحضر من الإنجازات الرئيسية، حيث أدّيا إلى تأسيس مجال بحثي جديد في السوسيولوجيا، يتمحور حول دراسة تفاعلات المهاجرين في البيئات الحضرية (باسيلي وآخرون، 2022).

6. تطوير سوسيولوجيا الهجرة والتحضر

من خلال هذه الدراسة، كان توماس وزنانكي من أوائل الباحثين الذين قاموا بتأسيس مجال سوسيولوجيا الهجرة والتحضر، مما قدّم إطارا جديدا لفهم إدماج المهاجرين في المجتمعات الجديدة، وقد أظهرا من خلال هذه المنهجية كيف أن الهجرة ليست مجرد عملية انتقال جغرافي، بل هي عملية اجتماعية معقدة تتضمن التفاوض المستمر بين الأفراد وبيئاتهم الجديدة (سميث، 2023).

الفصل الخامس :الدراسات السوسيولوجية الكبرى: من ميدلتاون إلى جونار ميردال

القسم الأول :دراسة ميدلتاون – الروح السوسيولوجية لروبرت وهيلين ليند

حينما قرر **روبرت وهيلين ليند** خوض تجربة دراسة ميدانية في مدينة "مونسي" بولاية إنديانا في عشرينيات القرن الماضي، لم يكونا يوثقان فقط تحولات مجتمع أمريكي صغير، بل كانا - في العمق - يرسمان معالم ما يمكن أن نسميه بـ"السوسيولوجيا التفسيرية التعددية" (Henslin, 2021)، وهي سوسيولوجيا لا تكتفي بوصف الظواهر بل تُعيد تأويلها في ضوء الحياة اليومية، والتحولات البنيوية، والتفاعل الرمزي بين الأفراد والمؤسسات(Lynd & Lynd, 1929) .

لقد كانت دراسة "ميدلتاون" نموذجًا تجريبيًا غير مسبوق في استخدام الأدوات الكيفية والكمية معا، .(Creswell & Poth, 2018) مما يجعلنا نعتبرها اليوم مرجعا تأسيسيا للبحث السوسيولوجي المحلي، ونقطة تقاطع بين سوسيولوجيا شيكاغو ونقد الطبقة المتصاعد آنذاك في أمريكا الصناعية(Abbott, 2001) .

1. مدخل إلى سوسيولوجيا "ميدلتاون"

في زمن لم يكن البحث السوسيولوجي قد تكرّس بعد كممارسة ميدانية مستقلة، اقتحم الزوجان روبرت وهيلين ليند عالم المجتمعات الصغيرة بوصفها "مختبرات حية للحداثة الاجتماعية"، فكانت "مونسي" مدينة نموذجية لفهم إيقاع التغير الاجتماعي، حيث تتقاطع البنية الصناعية بالثقافة الدينية، وتظهر ملامح الصراع الطبقي في أبسط تفاصيل الحياة اليومية.(Swedberg, 2020).

اختيار اسم "ميدلتاون" لم يكن اعتباطيا، بل ينطوي على حمولة رمزية :المدينة المتوسطة، التي تمثل الطبقة المتوسطة من حيث الحجم، والاقتصاد، والبنية القيمية، إنها ليست مدينة هامشية ولا متروبولية، بل مدينة "قابلة للتعميم"، وهذا ما منح الدراسة أهميتها.

اعتمدت الدراسة على مقاربة سوسيولوجية تطبيقية مستلهمة من مدرسة شيكاغو، خصوصا في التركيز على "الفعل الاجتماعي" و"العلاقات التفاعلية"، Giddens, (2006). دون إهمال أدوات الإحصاء والمسح الاجتماعي التي سمحت بقياس التغيرات في أنماط العمل، والدين، والتعليم، والترفيه، والأسرة، والمشاركة السياسية(Blumer, 1969)

2. المعمار المنهجي لدراسة ميدلتاون

تميزت دراسة "ميدلتاون" باستخدام مزيج من المناهج السوسيولوجية، نذكر منها:

- **الملاحظة بالمشاركة** :حيث شارك الباحثان في الأنشطة اليومية لسكان المدينة؛
- **تحليل الوثائق** :مثل الصحف المحلية، سجلات الكنائس، والتقارير المدرسية؛(Denzin & Lincoln, 2018)
- **المقابلات المفتوحة وشبه المنظمة**؛
- **المسح الكمي** :لقياس التغيرات الزمنية في المواقف والسلوكيات Creswell,) 2014).

هذا التعدد المنهجي مكّن ليند وزوجته من بناء **سوسيولوجيا تركيبية** تعكس البنية العميقة للمجتمع المحلي، وتبرز التفاعلات اليومية كتجليات للأنساق الأوسع، وهنا يكمن الإبداع السوسيولوجي الذي افتقرت إليه العديد من الدراسات المعاصرة التي ركزت على التجريد النظري على حساب الواقع المعاش.

3. بين البنية والفاعلين – قراءة في نتائج الدراسة

النتائج التي توصل إليها ليند وهيلين ليست مجرد معطيات إحصائية، بل سردية سوسيولوجية عميقة عن **أزمة التحديث الاجتماعي**:

- لاحظا **تفكك العلاقات التقليدية** وظهور الفردانية؛

- سجلا **تراجع سلطة الكنيسة** مقابل تصاعد تأثير المؤسسات الاقتصادية؛
- كشفا عن **عدم تكافؤ الفرص التعليمية** بين الطبقات؛(Putnam, 2000;)
- رصدا **هيمنة فئة الصناعيين** على القرار المحلي، بما يشبه "الأوليغارشيا المحلية " (Mills, 2002).

الأسرة، من جهتها، لم تعد فضاءا تقليديا محايدا بل أصبحت حلبة تفاوض بين الأجيال حول القيم الحديثة، وقد شكل هذا – وفقًا لتحليل ليند – واحدة من أبرز مؤشرات التحول القيمي في المجتمع الأمريكي.

4. الأثر السوسيولوجي لدراسة ميدلتاون

أحدثت "ميدلتاون" ما يمكن وصفه بـ"انزياح إبستيمي" في علم الاجتماع الأمريكي، حيث:

- كرّست **البحث الميداني كأداة رئيسية** لفهم المجتمع؛
- أكدت على **تكامل المناهج الكيفية والكمية**؛
- رسخت مفهوم "المدينة كنظام اجتماعي حي"؛(Whyte, 1943)
- ألهمت لاحقًا دراسات مثل "الأمريكيون الأوائل" و"البنية الاجتماعية للمجتمع الريفي.(Bellah et al., 1985) "

كما شكلت الدراسة خلفية فكرية لعلماء الاجتماع النقديين لاحقًا، الذين رأوا في "ميدلتاون" (Bourdieu, 1984)صورة مصغرة عن **التفاوت الاجتماعي البنيوي** الذي يتوارى خلف قشرة الديمقراطية المحلية.(Harvey, 2010)

خاتمة:

إن القيمة الحقيقية لدراسة "ميدلتاون" لا تكمن فقط في المعطيات التي وثقتها، بل في **المنهجية الجدلية** التي طبقتها، حيث يتشابك الفعل الفردي بالبنية الاجتماعية،

ويتفاعل المحلي مع الوطني، فلقد كانت بحق دراسة سوسيولوجية ذات طابع "أنثروبولوجي حديث"، جاعلة من المعيش اليومي منجما للتحليل السوسيولوجي العميق.

إن دراسة ميدلتاون لا تقرأ فقط في ضوء سياقها التاريخي، بل في قدرتها على تفسير ما هو راهن؛ إذ إن ما عاشه سكان مونسي في ثلاثينيات القرن الماضي يشبه إلى حد بعيد ما تعيشه مجتمعاتنا اليوم: فقدان التوازن بين البنى التقليدية والحداثة الزاحفة، وتفكك الروابط الاجتماعية، وتحول المواطن إلى "فرد معزول" رغم انغماسه في شبكات "الاتصال الرقمي"، بهذا المعنى، تبقى ميدلتاون "سوسيولوجيا مستمرة"، لا دراسة منتهية.

ملحق (1): جدول مقارنة بين ميدلتاون 1929 و1937

البعد الاجتماعي	1929 (Middletown I)	1937 (Middletown II)
الأسرة	النواة التقليدية؛ سلطة الأب بارزة	تحول تدريجي في الأدوار؛ زيادة تأثير المرأة في القرارات
الاقتصاد	سيطرة الطبقة الصناعية؛ تركز رأس المال	تأثر كبير بالأزمة الاقتصادية؛ تصاعد القلق الاقتصادي
الدين	الحضور الطقسي للمؤسسات الدينية	تراجع رمزي للكنيسة أمام الإعلام والمدرسة
الترفيه	نشاطات تقليدية؛ زيارات عائلية ومناسبات دينية	هيمنة السينما والراديو؛ تراجع التواصل العائلي
السياسة المحلية	سيطرة رجال الأعمال على المجالس	بروز التذمر الشعبي؛ محاولات الإصلاح المؤسسي
التعليم	تفاوت طبقي؛ فرص أفضل لأبناء النخب	استمرارية التفاوت؛ صعود الخطاب حول تكافؤ الفرص

ملحق (2): خريطة تحليلية – "ميدلتاون كنموذج للتحول القيمي"

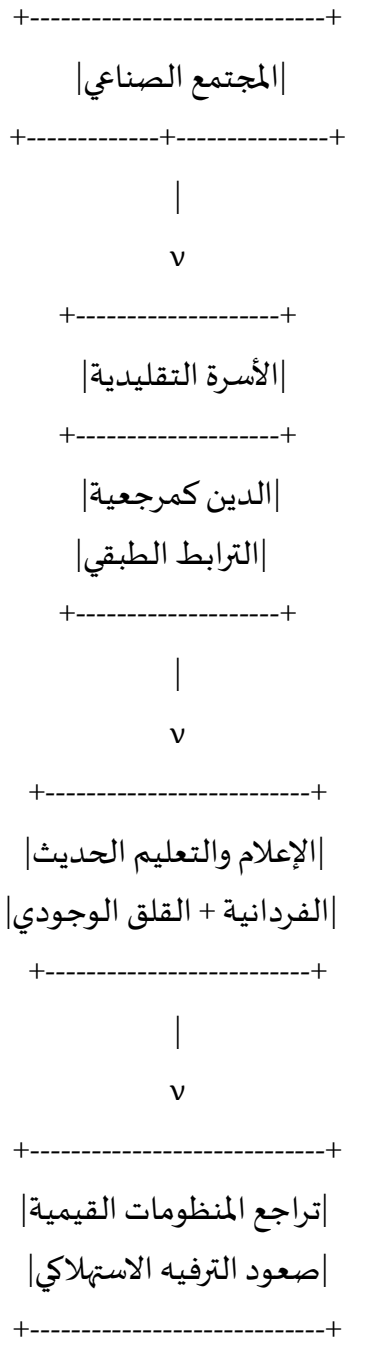

5. نتائج دراسة ميدلتاون

أ. نتائج الدراسة الأولى (1924–1925)

كشفت الدراسة الأولى عن توزيع طبقي واضح داخل مدينة مونسي، حيث تمّ رصد انقسام اجتماعي حاد بين طبقة رجال الأعمال، التي كانت تعتمد على رأس المال والملكية والمؤسسات الاقتصادية، وطبقة العمال التي تشتغل في الأعمال اليدوية والمهن منخفضة الأجر، وقد لوحظ اختلاف جوهري في أنماط الحياة بين هاتين الطبقتين، سواء في العلاقات الأسرية أو القيم الدينية أو التوجهات السياسية، مما يعكس وجود تراتبية اجتماعية دقيقة تحدد مسارات الحياة اليومية للأفراد.(Lynd & Lynd, 1929)

من الملاحظ أن التغيرات الثقافية بدأت تظهر أولًا داخل طبقة رجال الأعمال، ثم تنتقل تدريجيا إلى طبقة العمال، في عملية أقرب إلى ما يعرف اليوم بـ"انتقال القيم من النخبة إلى القاعدة(Lynd & Lynd, 1929) "، وقد اعتبر الباحثان أن هذا الانتقال يبرز نوعًا من "التقليد الاجتماعي غير الواعي"، حيث تلعب المكانة الاجتماعية دورا في تشكيل سلوك الأفراد الأقل حظا.

الشباب والنساء، خاصة ضمن الطبقة العليا، كانوا أكثر تفاعلا مع التغيرات الاجتماعية مقارنة بالكبار والرجال، وهو ما فسره الباحثان بكون هذه الفئات أكثر حساسية للتجديد والتمثلات الرمزية الجديدة التي فرضتها الصناعة والتقنية الحديثة (Lynd & Lynd, 1929)، هذا ما جعل التغير الاجتماعي غير متوازن زمنيا بين الفئات المختلفة من المجتمع.

كما لاحظت الدراسة أن أسرع مجالات التغير كانت المجال الاقتصادي، تليه الأنشطة الترفيهية والتعليم، ثم لاحقا النمط الأسري والديني، وقد اعتبرت هذه الفروقات الزمنية في الاستجابة مؤشّرا على أن التغير لا يحدث بنسق واحد داخل المجتمع، بل يتبع ما يُعرف بـ"التمايز البنيوي في التغير الاجتماعي.(Lynd & Lynd, 1929) "

ب. نتائج الدراسة الثانية (1935)

مع حلول فترة الكساد العظيم، عاد روبرت وهيلين ليند إلى مدينة مونسي لإجراء متابعة سوسيولوجية دقيقة لتحولات المجتمع المحلي، ونشرا نتائجها في كتاب "ميدلتاون في مرحلة انتقالية(Middletown in Transition, 1937) "، وقد استخدما في هذه المرحلة أدوات أكثر دقة مثل الاستبيانات المقننة والمقابلات المعمقة (Lynd & Lynd, 1937 .)

كشفت الدراسة أن العديد من الأسر فقدت استقرارها الاقتصادي وأصبحت تعتمد على المساعدات الحكومية، وتراجع معدل الزواج والولادات، وتوقفت مشاريع البناء، مما شكّل أزمة على مستوى إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية(Lynd & Lynd, 1937) .

كما رصدت ظواهر جديدة لم تكن بارزة في الدراسة الأولى، مثل ارتفاع معدل الدعارة، وانتشار إدمان الكحول، وهي مؤشرات على اهتزاز النظام القيمي داخل المجتمع بسبب ضغوط الفقر والبطالة، بالمقابل، ظلت الأسر الثرية تسيطر على الحقول الاقتصادية والسياسية والإعلامية، في حين بدأت النقابات العمالية في الظهور كقوة جديدة تحاول كسر احتكار القرار(Lynd & Lynd, 1937) .

أعاد الباحثان بناء تحليل الطبقات الاجتماعية ففرّقا بين:

- **الطبقة الوسطى العليا** :أصحاب المصانع، والتجار الكبار، والمديرون.
- **الطبقة الوسطى الدنيا** :من صغار التجار وأصحاب المهن.
- **الطبقة العاملة الأرستقراطية** :الحرفيون ورؤساء الورشات.
- **الطبقة العاملة الدنيا** :العمال غير المهرة.(Lynd & Lynd, 1937)

هذا التصنيف كان سوسيولوجيا دقيقا في استكشاف ديناميكيات التفاوت والهيمنة الطبقية في مجتمع يبدو سطحيا متجانسا، لكنه في العمق منقسم بشدة.

6. مساهمة سوسيولوجية عابرة للأزمنة

تشكل دراسة ميدلتاون واحدة من العلامات الفارقة في البحث السوسيولوجي الأمريكي، ليس فقط من حيث الموضوعات التي تناولتها، ولكن أيضا من حيث المنهجية المركبة التي مزجت بين الكيفي والكمي، بين الملاحظة المباشرة والتحليل الطبقي البنيوي.

وقد ساهمت هذه الدراسة في تأسيس مقاربة جديدة لفهم المجتمع المحلي في ظل الرأسمالية الصناعية، واعتبرت مرجعا تأسيسيا للعديد من الدراسات اللاحقة، مثل دراسة "يانكي سيتي (Yankee City) "لـ"ويليام لويد وارنر" التي واصلت نفس المنهج في تحليل التغيرات الطبقية.

القسم الثاني :دراسة هاوثورن "إلتون مايو"

1. دراسة هاوثورن "إلتون مايو"

يرتبط نشوء علم الاجتماع ارتباطا وثيقا بالتحولات الكبرى التي شهدها المجتمع الغربي مع الثورة الصناعية، بدءا من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، فقد أدى هذا التحول إلى بروز تساؤلات جديدة حول التغيرات الجذرية التي طرأت على نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية، وتأثير هذه التحولات على النظم الاقتصادية والسياسية والمؤسساتية، وفي هذا السياق، بدأ الباحثون ينظرون إلى المصنع والمؤسسة الإنتاجية باعتبارها فضاءا مركزيا لفهم الظواهر الاجتماعية الناشئة.(Giddens, 2009)

ومن بين أهم المقاربات التي برزت لدراسة هذه الظواهر، نجد "مدرسة العلاقات الإنسانية"، والتي مثلت قطيعة مع التصورات الكلاسيكية التي تعاملت مع الإنسان ككائن اقتصادي بحت، تسهل السيطرة عليه وتحفيزه عبر الأجور والحوافز المادية فقط، كما تجلى في نظرية تايلور في الإدارة العلمية، وبالمقابل، انطلقت هذه المدرسة من فرضية أساسية ترى أن الإنسان في بيئة العمل هو كائن اجتماعي تتشكل دوافعه من خلال التفاعل مع محيطه المهني والاجتماعي(Robbins & Judge, 2019) .

وفي هذا السياق، يعتبر "إلتون مايو" (1880–1949) من أبرز المفكرين الذين ساهموا في التأسيس العلمي لمدرسة العلاقات الإنسانية، (قريوتي، 2006)،حيث شدد على أهمية دراسة الجماعات غير الرسمية داخل المؤسسة، وعلى ضرورة فهم أن السلوك المهني لا يمكن تفسيره فقط من خلال الحوافز المادية، بل ينبغي فهمه أيضًا في ضوء الانتماءات الجماعية، والضغوط الاجتماعية، والحاجات النفسية(Mayo, 1945) .

وقد شكّلت تجارب هاوثورن التي قادها إلتون مايو وزملاؤه من جامعة هارفارد، نقطة تحول محورية في تاريخ الفكر الإداري والسوسيولوجي، وأسهمت بشكل كبير في إعادة النظر في طبيعة العلاقات داخل المؤسسة، وتحديدا بين العاملين والإدارة.

2. تجارب هاوثورن(Hawthorne Studies)

أجريت تجارب هاوثورن بين عامي 1924 و1932 في مصنع "ويسترن إلكتريك" بمدينة شيكاغو الأمريكية، (قباري، 2011).وقد كانت هذه التجارب تهدف في البداية إلى قياس أثر العوامل الفيزيائية كالإضاءة وفترات الراحة على إنتاجية العمال، غير أن النتائج قادت الباحثين إلى اكتشافات غير متوقعة فتحت الباب أمام إعادة صياغة فهمنا لسلوك الأفراد في العمل(Roethlisberger & Dickson, 1939) .

أ. تجربة الإضاءة

تمثلت التجربة الأولى في مقارنة الإنتاجية بين مجموعة من العاملات خُفضت لهن الإضاءة تدريجيا، ومجموعة ضابطة لم تغير ظروف إضاءتها، والمفاجأة كانت أن الإنتاجية تحسنت في كلتا المجموعتين، مما دفع الباحثين إلى التساؤل عن العوامل الأخرى المؤثرة، وخلصوا إلى أن مجرد "الاهتمام الذي أبداه الباحثون بالعاملات"، شكل عنصرا نفسيا إيجابيا رفع من دافعيتهم، وهذا التأثير النفسي أطلق عليه لاحقا "تأثير هاوثورن " (Hawthorne Effect)، الذي يشير إلى تحسن أداء الأفراد حينما يشعرون أنهم محل اهتمام ومتابعة(Adair, 1984) .

مثال: إذا شعر العامل أن المدير يراقب أداءه باهتمام إيجابي، فقد يدفعه ذلك لبذل جهد أكبر، ليس خوفا من العقوبة، بل تقديرًا للاهتمام الذي يتلقاه.

ب. تجربة شبكة الأسلاك

هدفت هذه التجربة إلى اختبار العلاقة بين الحوافز المادية والإنتاجية، إلا أن النتائج كشفت أن العمال لم يستجيبوا دائما للحوافز كما كان متوقعا، بل ظهرت ممارسات جماعية غير رسمية، مثل "خفض الإنتاج عمدا" للحفاظ على مستوى معين من الأداء داخل الجماعة(عبد الرحمن، 2003)، فقد تبيّن أن الجماعات تفرض قواعد غير مكتوبة، وتمارس ضغوطا اجتماعية على أعضائها للالتزام بها، ما يشير إلى أن العلاقات الاجتماعية قد تكون أقوى من الحوافز الاقتصادية(Homans, 1950) ،

مثال: قد يرفض العامل زيادة إنتاجيته حتى لو زادت أجرته، إذا شعر بأن ذلك قد يضر بعلاقته مع زملائه الذين اتفقوا ضمنيًا على مستوى أداء معين.

ج. تجارب خطوط التجميع، فترات الراحة، وبرنامج المقابلات

تضمنت المرحلة التالية من التجارب تعديل فترات الراحة وساعات العمل ومراقبة أثر ذلك على أداء العاملين، وأظهرت النتائج أن التحسينات لم تكن دائما مرتبطة بالعوامل الفيزيائية، بل كانت مرهونة بشعور العمال بالعدالة، وبأن الإدارة تهتم بمصلحتهم، كما نفذ برنامج مقابلات شمل آلاف العمال، كشف أن العاملين أكثر استجابة عندما يُشعرون بأن آراءهم محترمة، وهو ما يعزز الانتماء التنظيمي والرضا الوظيفي.(Brannigan & Zwerman, 2001)

خلاصة

أحدثت تجارب هاوثورن نقلة نوعية في الفهم السوسيولوجي للمؤسسة، حيث بيّنت أن المؤسسة ليست مجرد كيان تقني أو اقتصادي، بل هي منظومة اجتماعية

تحتوي على ثقافة تنظيمية، جماعات غير رسمية، وقواعد تفاعلية غير مكتوبة، وقد ساعدت هذه النتائج في ظهور مفهوم "الثقافة التنظيمية" و"القيادة الإنسانية" كأسس لتحسين الإنتاجية والأداء.(Schein, 2010)

من منظور سوسيولوجي، تعتبر بيئة العمل ساحة للتفاعل الرمزي، حيث يتأثر السلوك ليس فقط بالرواتب أو الإضاءة، بل بالعلاقات، التقدير، والثقة.

جدول 1: تلخيص تجارب هاوثورن و أبرز نتائجها

التجربة	الهدف الأساسي	الإجراءات المتخذة	النتائج الرئيسية	الدلالة السوسيولوجية
تجربة الإضاءة	قياس تأثير الإضاءة على الإنتاجية	تغيير مستويات الإضاءة في مجموعتين (تجريبية وضابطة(	زيادة الإنتاجية في كلا المجموعتين	أهمية العامل النفسي وشعور الأفراد بالاهتمام
تجربة شبكة الأسلاك	دراسة تأثير الحوافز المادية على الأداء	استخدام نظام مكافآت مرتبط بالإنتاج	ظهور جماعات غير رسمية تحكم سلوك الأفراد	تأثير الجماعة أقوى من الحوافز المادية
تجربة فترات الراحة والعمل	اختبار تأثير تنظيم العمل على الإنتاجية	تعديل عدد ساعات العمل وفترات الراحة	تحسن الأداء عند زيادة الاستقلالية والشعور بالعدالة	دور العدالة والإحساس بالتحكم في تعزيز الدافعية
برنامج المقابلات الجماعية	فهم مشكلات العاملين وتصوراتهم	إجراء أكثر من 20 ألف مقابلة مع العمال	تحسن الروح المعنوية وزيادة الرضا الوظيفي	أهمية الإصغاء والمشاركة في صنع القرار

ملاحظات :

- تأثير هاوثورن (Hawthorne Effect) ظهر بوضوح، ويشير إلى أن مجرد الملاحظة أو الشعور بالاهتمام قد يحسن الأداء.

- هذه التجارب مهّدت لتطور نظريات مثل: "الثقافة التنظيمية"، و"الدافعية الإنسانية"، و"القيادة التحويلية."

3. نتائج دراسة هاوثورن: قراءة تحليلية سوسيولوجية

ساهمت تجارب هاوثورن بشكل جوهري في إحداث تحول نوعي في مفاهيم إدارة العمل والعلاقات الإنسانية داخل المؤسسات الإنتاجية، فقد كانت هذه التجارب نقطة ارتكاز لنقل بؤرة التحليل من الاعتبارات الاقتصادية الصرفة نحو فهم أعمق للأبعاد الاجتماعية والنفسية التي تحكم سلوك الإنسان العامل داخل التنظيم، إذ لم تعد المنظمة تُفهم فقط كنسق بيروقراطي ميكانيكي، بل كمنظومة اجتماعية معقدة تتفاعل فيها القوى الرسمية وغير الرسمية على حد سواء (علام، 1994).

أحد أهم الاكتشافات السوسيولوجية التي أظهرتها هذه التجارب هو أن الحوافز المعنوية والعلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجماعة تلعب دورا لا يقل أهمية عن الحوافز المادية في تحديد مستوى الإنتاجية، فالإنسان في بيئة العمل لا يسعى فقط إلى تحقيق المنفعة الاقتصادية، بل يبحث أيضا عن الاعتراف الاجتماعي، والشعور بالانتماء، وتحقيق التقدير الذاتي، وهي احتياجات لا يمكن تلبيتها إلا من خلال الجماعة، وقد بينت التجربة أن العاملين كانوا أكثر إنتاجية حين شعروا بأنهم جزء من كيان اجتماعي، تؤخذ آراؤهم بعين الاعتبار ويُحترمون كأشخاص، وليس كعناصر إنتاج (حسن، 2003).

في ضوء هذه المعطيات، بدأ الباحثون والمديرون يدركون أن العمل ليس مجرد نشاط ميكانيكي أو اقتصادي، بل هو سلوك اجتماعي يتأثر بالثقافة التنظيمية، وبنية الجماعة، وأنماط القيادة، والعلاقات غير الرسمية التي تتشكل بعيدا عن الهيكل الرسمي، وبهذا، أسهمت تجارب هاوثورن في تأسيس المدخل الإنساني في الإدارة، وهو ما أصبح لاحقا ركيزة في نظريات التنظيم الحديثة مثل نظرية العلاقات الإنسانية ونظرية النظم المفتوحة.

ومن الزاوية السوسيولوجية المعاصرة، تعد نتائج هذه التجارب بمثابة تأكيد على مركزية مفهوم "الفعل الاجتماعي "الذي طرحه ماكس فيبر، والذي يرى أن سلوك الأفراد لا يمكن تحليله إلا في سياق المعاني التي يضفونها عليه، والعلاقات الاجتماعية التي ينخرطون فيها، كما أن الجماعة غير الرسمية التي نشأت داخل حجرة الاختبار تمثل ما وصفه إميل دوركايم بـ "الضمير الجمعي" الذي يسهم في ضبط السلوك وتشكيل المعايير الاجتماعية داخل المؤسسة.

وقد أظهرت التجارب أن التنظيم غير الرسمي قادر على إنتاج معايير سلوكية مستقلة قد تتعارض أحيانا مع أهداف الإدارة الرسمية، وهذه القدرة على التفاوض غير المعلن مع السلطة تشكل ما يعرف بـ"المقاومة الصامتة" أو "السلطة المضادة" التي يمارسها العمال، وهي ظاهرة استرعت انتباه السوسيولوجيين لاحقا في دراساتهم حول الثقافة العمالية.(Burawoy, 1979)

بالتالي، فإن أبرز ما يمكن استنتاجه من تجارب هاوثورن هو أن التنظيمات لا تعمل فقط من خلال القوانين والإجراءات، بل تتفاعل ضمن شبكة من القيم والمعاني والتفاعلات اليومية، ولذا، فإن أي إصلاح تنظيمي لا يأخذ هذه العناصر غير الرسمية بعين الاعتبار، مآله الفشل أو التآكل البطيء من الداخل.

4. تأثير نتائج تجارب هاوثورن على النظريات الإدارية الحديثة: قراءة نقدية مقارنة

لقد شكلت نتائج تجارب هاوثورن نقطة تحوّل فارقة في تطور الفكر الإداري، بحيث دفعت نحو الانتقال من النظرة الآلية إلى الإنسان العامل – كما كان ينظر إليه في المدرسة الكلاسيكية – إلى رؤية أكثر شمولية تأخذ بعين الاعتبار أبعاده النفسية والاجتماعية(Maslow, 1943)، وهذا التحوّل مهد الطريق لظهور نظريات جديدة أكثر إنسانية، على غرار نظرية ماسلو للحاجات ونظرية ماكغريغور X وY، التي رأت أن الإنسان ليس مجرد أداة إنتاج، بل كائن يسعى لتحقيق الذات والانتماء والتقدير (McGregor, 1960).

في هذا السياق، نظرية العلاقات الإنسانية التي استلهمت من هاوثورن اعتبرت أن بيئة العمل يجب أن تصمم بطريقة تحفز المشاعر الإيجابية، وتسهم في بناء علاقات اجتماعية متناغمة، غير أن هذا التصور، رغم ثورويته في زمانه، لم يسلم من الانتقادات، خاصة في الدراسات الحديثة التي ترى أن الاهتمام المبالغ فيه بـ"الانسجام الاجتماعي" قد يخفي علاقات القوة والاستغلال ويحول التنظيم إلى فضاء "مؤدلج" يخضع الأفراد باسم "العلاقات الإنسانية.(Alvesson & Willmott, 1992) "

علاوة على ذلك، بينت المقاربات المعاصرة في سوسيولوجيا العمل – خاصة المقاربة النقدية والمدرسة الما بعد حداثية – أن التنظيم لا يمكن فهمه فقط من خلال البُنى الرسمية أو علاقات التقدير، بل ينبغي إدراكه كفضاء للصراع الرمزي والمادي. فالتنظيم، وفق هذه الرؤية، هو ساحة تتقاطع فيها المصالح، وتتنازع فيها سلطات التأويل والمعنى، حيث لا يكون العامل دائمًا مشاركا طواعية في "العلاقات الإنسانية"، بل قد يمارس عليه شكل جديد من الرقابة الناعمة.(Foucault, 1977)

وبينما احتفت تجارب هاوثورن بالانتماء الجماعي وأثره في الإنتاج، تطرح النظريات المعاصرة مثل نظرية رأس المال الرمزي لبورديو أن الانتماء نفسه قد يكون آلية لإعادة إنتاج الهيمنة والتراتبية داخل المؤسسة، حيث تكافأ بعض القيم والعلاقات وتقصى أخرى، وهنا، لا تعود "الجماعة غير الرسمية" مجرد دعم معنوي، بل قد تصبح أداة في يد فئات مهيمنة لإعادة تشكيل الولاءات وضبط السلوك.

ومع تطور المؤسسات الحديثة وتزايد اعتمادها على التكنولوجيا، أصبح من الضروري تجاوز الفهم البسيط للعلاقات الإنسانية، والانفتاح على مفاهيم مثل الثقة التنظيمية، الثقافة الرقمية، الذكاء العاطفي، وقيادة التمكين، وهي مفاهيم تسعى إلى معالجة التحديات المعقدة التي يواجهها الإنسان العامل في بيئة سريعة التغير، تتطلب مهارات تواصل وتفاعل تختلف عن تلك التي ركزت عليها تجارب هاوثورن.

مقارنة تركيبية بين تجربة هاوثورن والمقاربات المعاصرة

المحور	تجربة هاوثورن	المقاربات المعاصرة
مفهوم الإنسان	كائن اجتماعي يحتاج إلى الاعتراف والانتماء	فاعل معقد يتفاعل ضمن ديناميكيات سلطة ومعنى
التنظيم	شبكة من العلاقات الإنسانية غير الرسمية	فضاء للصراع الرمزي وإنتاج السلطة والمعاني
السلطة	تُخفف من خلال العلاقات الإنسانية	تُعاد إنتاجها بأشكال ناعمة وغير مرئية
العلاقة بالإنتاجية	تتحسن بتحسن المناخ الاجتماعي	تتحسن بتوافر العدالة التنظيمية وتمكين الأفراد
النقد الأساسي	تبسيط السلوك البشري والتركيز على الانسجام	غفلت عن ديناميات السيطرة والهيمنة

خاتمة:

يمكن القول إن نتائج تجارب هاوثورن قدمت انطلاقة هامة لفهم الإنسان في السياق التنظيمي، لكنها بقيت محدودة في رؤيتها للسلطة والمعنى، ومع تعقّد المؤسسات وتعدد أشكال التفاعل داخلها، أصبحت هناك حاجة إلى مقاربات سوسيولوجية أكثر شمولا، توازن بين الجانب الإنساني والتحليل النقدي للبنى التنظيمية التي تصوغ هذا الإنسان وتوجه سلوكه، عن وعي أو بغير وعي.

5. تطبيقات معاصرة لأفكار تجارب هاوثورن في الإدارة الرقمية والقيادة الحديثة:

أ. بيئة العمل الرقمية والعلاقات غير الرسمية

كما أظهرت تجارب هاوثورن أهمية "الجماعات غير الرسمية" وتأثيرها في رفع الإنتاجية، فإن الإدارة الرقمية اليوم تعتمد على نفس المبدأ ولكن بشكل أكثر تعقيدا عبر أدوات التواصل الرقمي (مثلSlack ، Teams، (Zoom، حيث يتشكل نوع جديد من

"الثقافة التنظيمية الرقمية"، تبرز فيه جماعات غير رسمية رقمية تؤثر على اتجاهات الموظفين، تشارك المعرفة، وتبني شبكات دعم معنوي.

- **قراءة نقدية :**هذه البيئات الرقمية غير الرسمية قد تخلق تحفيزا، لكنها قد تتحول إلى فضاءات رقابية ناعمة، حيث يراقب الأفراد من خلال تفاعلاتهم، وتقيّم إنتاجيتهم رقميا، مما يكرس سلطة خفية تمارَس عبر البيانات والخوارزميات.

ب. القيادة التشاركية والقيادة التحويلية

نتائج هاوثورن ألهمت توجهات القيادة التي تعلي من شأن العلاقات الإنسانية، مثل القيادة التحويلية التي تركز على الإلهام والتحفيز والاهتمام الفردي، وهذه القيادة تجد اليوم أرضية خصبة في المؤسسات الرقمية، خاصة في البيئات المرنة والعمل عن بعد.

- **قراءة نقدية :**رغم فعالية هذه الأنماط، إلا أن كثيرا من الأدبيات الحديثة تحذّر من القيادة التشاركية الزائفة، أي التي تدّعي إشراك الأفراد بينما تحتفظ بالقرارات في يد الإدارة العليا، فالعلاقات الإنسانية يمكن أن تستغل كوسيلة للضبط النفسي بدل أن تكون أداة تحرير.

ج. الذكاء العاطفي في الإدارة

أظهرت هاوثورن أن المشاعر تؤثر في الأداء، واليوم تطورت هذه الفكرة لتصبح حجر الزاوية في ما يعرف بـ الذكاء العاطفي التنظيمي، أي قدرة القادة والعاملين على فهم مشاعرهم ومشاعر الآخرين، والتعامل معها بفعالية، هذا مهم خاصة في الفرق الافتراضية حيث تغيب الإشارات غير اللفظية.

- **قراءة نقدية :**الذكاء العاطفي لا يجب أن يُستخدم فقط لتحسين الأداء، بل ينبغي توظيفه لبناء بيئة عادلة ومتوازنة نفسيا، فالتركيز على "الإيجابية المفرطة" قد يُخفي المعاناة ويشوّه صوت النقد المشروع داخل المؤسسات.

د. الثقافة التنظيمية الرقمية: بين الدعم والرقابة

في عصر الرقمنة، أصبحت الثقافة التنظيمية مرئية ومراقبة باستمرار من خلال البيانات والتحليلات التنبؤية، فمثلا، يقاس "الرضا الوظيفي" من خلال تحليلات البريد الإلكتروني، أو "الولاء" من خلال تفاعل الأفراد مع المنصات.

- **قراءة نقدية** :هذا يعيدنا إلى روح هاوثورن ولكن مع أدوات جديدة: هل نحن بصدد تكرار "تأثير المراقبة"؟ وهل الموظف يعرف أصلا أنه تحت المجهر؟ هنا يتقاطع السلوك البشري مع قضايا الخصوصية والتحكم الرقمي في الحوافز والسلوك.

هـ. إعادة تشكيل الجماعة: من فريق العمل إلى المجتمع الافتراضي

كما رصدت هاوثورن أثر الجماعة على الفرد، فإن اليوم تتشكل مجتمعات عمل رقمية عبر المنتديات، الشبكات الداخلية، مجموعات الابتكار، مما يفتح المجال أمام تمكين الموظفين وتبادل الأفكار.

- **قراءة نقدية** :هذه الجماعات الرقمية قد تنتج طاقة إيجابية، لكنها أيضا قد تحوّل التنظيم إلى "فقاعة فكرية" حيث تهمّش الأصوات المختلفة، ويعاد إنتاج الولاء الجماعي دون مساءلة، مثلما حصل في بعض الشركات الكبرى التي انهارت رغم "الانسجام الظاهري" في فرقها.

خاتمة:

رغم أن تجارب هاوثورن تعود إلى القرن العشرين، إلا أن جوهرها ما زال حيا في قلب التحولات الإدارية الحديثة، حيث يكمن الفرق أن التكنولوجيا اليوم أعادت صياغة مفاهيم الجماعة، الرقابة، الدافعية، والرضا – لكنها لم تلغي دور العلاقات الإنسانية، بل جعلتها أكثر تعقيدًا، ومن ثم، فإن الفهم المعاصر يتطلب نظرة ناقدة وشمولية، توازن بين الجانب الإنساني والتحليل السيادي للسلطة الرقمية داخل التنظيمات.

6. المدرسة السلوكية في الإدارة: منظور سوسيولوجي حديث

لقد مثلت المدرسة السلوكية ثورة مفاهيمية في علم الإدارة، حيث انتقلت بنقاشاتها من التركيز على الآلة والإنتاج إلى الاهتمام بالإنسان ككائن اجتماعي يعيش ضمن سياقات تنظيمية وثقافية، وتستند هذه المدرسة إلى فرضية مركزية مفادها أن الأداء والإنتاجية لا يمكن عزلهما عن طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل بيئة العمل، من هنا، لم يعد ينظر إلى العامل كعنصر ميكانيكي يمكن تحفيزه ماديا فقط، بل أصبح يفهم في إطار نفسي اجتماعي شامل، حيث تؤثر العلاقات، والانتماء، والتقدير، والشعور بالأمن في نوعية أدائه.

وتؤكد نتائج دراسات إلتون مايو في تجارب هاوثورن على هذه الرؤية، حيث أظهرت أن العوامل الاجتماعية (مثل الانتماء إلى مجموعة عمل متماسكة أو علاقة طيبة مع المشرف) لها تأثير أكبر من الحوافز المادية المباشرة على إنتاجية العاملين (علام، 1994)، ولقد شكّلت هذه الدراسات قاعدة انطلاق لتحول نوعي في فهم بيئة العمل، وأسست لنشوء المدرسة السلوكية التي مزجت بين مفاهيم علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع الصناعي.

وفي ضوء هذا التحول، برزت أهمية التحليل السوسيولوجي في الإدارة، والذي لم يكتف بوصف التفاعلات، بل سعى إلى تفسيرها في ضوء البنى الثقافية والتنظيمية، ما ساهم في إدماج نظريات الانتماء والهوية والتنظيم غير الرسمي في مقاربات الإدارة الحديثة، ولقد أصبح التفاعل الاجتماعي، والانفعالات المشتركة، والضبط الجمعي غير الرسمي، عناصر بنيوية لفهم السلوك البشري في المنظمات.(Homans, 1958)

القسم الثالث :دراسة "يانكي سيتي" – لويد وارنر

1. دراسة "يانكي سيتي" – لويد وارنر

تأتي أهمية دراسة "يانكي سيتي (Yankee City) "من كونها نموذجا تطبيقيا لتحليل التراتب الاجتماعي والعلاقات الإثنية في مجتمع صناعي صغير، بما يسمح بفهم أعمق للروابط بين البنية الاقتصادية والمكانة الاجتماعية من منظور أنثروبولوجي-سوسيولوجي، حيث اعتمد لويد وارنر في دراسته هذه على الدمج بين المناهج الإثنوغرافية والتحليل الطبقي، مما جعلها ركيزة لفهم تمايز الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الحديثة، حيث لم تعد الطبقات ترتبط فقط بالموقع الاقتصادي، بل بالرموز الثقافية والهوية الاجتماعية أيضا.

2. نبذة عن حياة لويد وارنر

ولد لويد وارنر سنة 1898، وتكوّن علميا في سياق تفاعل بين الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع الأمريكي الكلاسيكي، حيث حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام 1931، وكان تأثره واضحا بأفكار روبرت بارك ووليليام توماس، حيث أخذ عنهم أهمية البحث الميداني والتفسير الثقافي للتغير الاجتماعي، وتميز وارنر بقدرته على نقل تقنيات البحث الأنثروبولوجي من المجتمعات القبلية إلى الحواضر الأمريكية، وهو ما شكّل نقلة معرفية مهمة في التحول نحو دراسة المجتمعات الصناعية من منظور أنثروبولوجي.

3. مساهماته الميدانية

تعدّ "يانكي سيتي" أضخم مشاريعه، وقد أجريت بين عامي 1930 و1936 في مدينة "نيو بورت بيري" بولاية نيو إنجلاند، وبلغ عدد سكانها نحو 8000 نسمة. حاول وارنر أن يسقط مفاهيم القبيلة والطبقة والانتماء على مجتمع معقد عرقيا واجتماعيا، يتألف من مهاجرين إيطاليين، بولنديين، إيرلنديين ويهود، إلى جانب الأمريكيين البيض من أصول

إنجليزية، وقد وجد أن هذا التنوع أنتج شبكة من التمايزات الطبقية المتقاطعة مع الهويات الثقافية، ما جعله يطرح مفهوم "الطبقة كواقع اجتماعي ثقافي" لا يفسّر فقط بالاقتصاد، بل بالقيم والتقاليد والعلاقات اليومية.(Warner & Lunt, 1941) .

4. التحليل السوسيولوجي للدراسة

تميّزت دراسة وارنر بكونها أول محاولة أمريكية منهجية لتطبيق التحليل الطبقي على مجتمع محلي وفق مدخل إثنوغرافي شامل، فاعتمد على الملاحظة المباشرة، والمقابلات العميقة، والمسوح الاجتماعية، وصمم "سلما للطبقات الاجتماعية" من ست درجات بناءا على المعايير التالية: العمل، التعليم، الدين، العرق، ومستوى المشاركة الاجتماعية، ومن خلال هذا السلم، كشف عن وجود استمرارية في التمييز الطبقي رغم خطاب المساواة السائد في المجتمع الأمريكي.

وقد أكد وارنر أن "المكانة (Status) "هي عامل مهيمن في ضبط العلاقات الاجتماعية، فهي لا تمنح فقط وفقا للدخل أو التعليم، بل من خلال رموز ثقافية مثل الانتماء الكنسي، اللهجة، نمط اللباس، وأساليب الترفيه، فحتى بين العمال، لاحظ وارنر وجود تمايزات دقيقة تفصل بين "الطبقة الوسطى الدنيا" و"الطبقة العاملة"، مما يدحض فرضية التماثل الاجتماعي في البيئات الصناعية.(Warner, 1963)

5. امتداد دراسات وارنر إلى المصنع

لا يمكن فهم مساهمة وارنر دون الإشارة إلى دوره في تجارب هاوثورن، التي جعلته أكثر وعيا بأهمية العوامل الاجتماعية داخل المصنع، حيث كان من الأوائل الباحثين الذين أشاروا إلى أن التنظيم غير الرسمي داخل جماعات العمل قد يتفوق في تأثيره على القرارات الرسمية والتنظيمات القانونية، وهذا ما عزز من دعوته إلى "التحليل البنيوي للعلاقات الاجتماعية في العمل"، أي فهم المصنع كنسق اجتماعي له قواعده الخاصة، وليس فقط وحدة إنتاجية ميكانيكية.

6. الإرث الأكاديمي:

لقد ساهمت دراسات وارنر في ترسيخ ما يعرف بـ"الأنثروبولوجيا الحضرية"، حيث لم تعد الأنثروبولوجيا حكرًا على القبائل والمجتمعات البدائية، بل انفتحت على الأحياء الحضرية والمصانع والمدن، ومن جهة أخرى، فإن أعماله ما زالت تدرّس في كبرى جامعات علم الاجتماع، كمصدر تأسيسي لتحليل الطبقات الاجتماعية والتفاعلات الإثنية في المجتمعات المركّبة.

أ. تحليل سوسيولوجي لدراسة "يانكي سيتي"

تمثل دراسة "يانكي سيتي" نقلة نوعية في الدراسات الاجتماعية الميدانية، حيث اعتمد وارنر على مقاربة شاملة تدمج بين المنهج الأنثروبولوجي والسوسيولوجي لتحليل بنية المجتمع الصناعي، حيث ركّز في دراسته على فهم كيفية تفاعل الطبقات الاجتماعية، والأدوار العرقية، ومظاهر الهيمنة والاندماج داخل مدينة صغيرة لكنها معبرة عن أنماط المجتمع الأمريكي الأكبر، حيث تميزت الدراسة باعتمادها على أدوات البحث الميداني المباشر كالملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المتعمقة، وتحليل السجلات الرسمية، مما أضفى على نتائجها طابعا تجريبيا عميقا.(Warner, 1941)

من منظور سوسيولوجي حديث، يمكن اعتبار عمل وارنر تجسيدا أوليا لما أصبح لاحقا يعرف بـ"سوسيولوجيا الحياة اليومية"، حيث لم يدرس التنظيم الصناعي كمجرد بنية إنتاجية، بل كفضاء اجتماعي معقد يتشابك فيه ما هو اقتصادي بما هو رمزي وثقافي، حيث أظهرت الدراسة كيف أن العوامل غير الاقتصادية — مثل المكانة الاجتماعية، والهوية العرقية، والانتماء الديني — تلعب دورا حاسما في إعادة إنتاج التراتب الاجتماعي، وتوجيه سلوك الأفراد داخل المجتمع المحلي (علام، 1994).

وقد كشف وارنر عن وجود نظام طبقي غير رسمي داخل "يانكي سيتي"، يتوزع فيه السكان إلى ست طبقات، لكل منها معاييرها ومجالات نفوذها الخاصة، حيث لاحظ أن الانتماء الطبقي لا يتحدد فقط بالدخل أو الوظيفة، بل يتأثر بمظاهر أخرى مثل الأصل

العرقي، ومستوى التعليم، ونمط الحياة، مما يعكس بوضوح التداخل البنيوي بين الطبقة والثقافة في تشكيل النظام الاجتماعي، وهذا التحليل يشكل أساسًا لنقد النظريات الاقتصادية البحتة التي ترجع الحراك الاجتماعي إلى أسباب مادية فقط، متجاهلة البعد الرمزي للتمايز الطبقي.(Warner & Lunt, 1941)

ب. البُعد العرقي في الدراسة

أحد الإسهامات الجوهرية لدراسة "يانكي سيتي" هو تسليط الضوء على الدور الاجتماعي للجماعات العرقية، ليس بوصفها وحدات إثنوغرافية فحسب، بل كفاعلين اجتماعيين داخل بنية السلطة والمكانة، حيث لاحظ وارنر أن الجماعات العرقية كالإيطاليين والبولنديين، رغم مساهمتها الاقتصادية، كانت تقصى اجتماعيا من الطبقات العليا، مما يعكس نمطًا من الإقصاء الرمزي يماثل ما بات يعرف اليوم بـ"العنصرية البنيوية.(Bonilla-Silva, 2003) "

يظهر هذا التحليل كيف أن التفاعل الاجتماعي في بيئات صناعية لا يخلو من أبعاد القوة والهيمنة، حيث يعاد إنتاج الفوارق الاجتماعية عبر آليات غير مرئية، كالتصنيف الثقافي، والتوقعات الاجتماعية، والتمثلات الجماعية، وهذا الطرح يعتبر سابقا لأوانه، إذ مهد الطريق أمام ظهور اتجاهات سوسيولوجية نقدية تعنى بتحليل الهياكل الرمزية التي تنتج اللامساواة، بما يتجاوز المحددات الاقتصادية المباشرة.

ج. علاقة الفرد بالمجتمع في ضوء نتائج الدراسة

في ضوء نتائج "يانكي سيتي"، يبدو أن الفرد داخل التنظيم الصناعي لا يتحرك باعتباره وحدة اقتصادية منعزلة، بل ككائن اجتماعي محكوم بجملة من التفاعلات والمعايير الاجتماعية التي تشكل سلوكه وتُعيد تعريف مكانته داخل المؤسسة والمجتمع، وهنا يبرز تأكيد وارنر على أهمية "الانتماء الرمزي" للفرد، أي ارتباطه بمجتمعه المحلي عبر منظومة من القيم والمواقف والمعايير التي تحدد موقعه وتفاعلاته (علام، 1994).

هذا التصور ينسجم مع المدرسة التفاعلية الرمزية التي ظهرت لاحقا، والتي تركز على أن الواقع الاجتماعي يبنى من خلال التفاعل والمعنى، ويمكن اعتبار وارنر أحد الممهدين لهذا الاتجاه، من خلال تأكيده على أن فهم التنظيمات لا يتم عبر الهياكل فقط، بل من خلال العلاقات والتجارب اليومية للأفراد داخلها.

7. التحليل السوسيولوجي لنتائج دراسة "يانكي سيتي"

إن دراسة "يانكي سيتي" لا يمكن قراءتها قراءة سطحية أو وصفية محضة، بل تستدعي مقاربة سوسيولوجية تحليلية تبرز النسق الطبقي كمُنتج تاريخي واجتماعي متجذر في البنية الثقافية والاقتصادية للمجتمع الأمريكي المحلي في نيو بورت بيري، فالنسق الطبقي الذي حدده لويد وارنر يمثل أكثر من مجرد تصنيف للمكانة الاجتماعية، إنه انعكاس مركب لبنية السلطة، وأنماط التفاعل، ومجالات الاندماج والإقصاء داخل الحقل الاجتماعي المحلي.(Warner, 1980)

وقد ساهمت الدراسة في تقديم قراءة دقيقة لبنية المجتمع الصناعي الأمريكي في بدايات القرن العشرين، من خلال إبراز العلاقة الجدلية بين الاقتصاد والثقافة في تشكيل الوعي الطبقي للأفراد، حيث لا تختزل الطبقة في مقدار الدخل أو نوعية المهنة، بل تتحدد وفق "رأسمال رمزي" ينتج من خلال المعايير الثقافية والاجتماعية التي تنظم تفاعلات القبول والاندماج داخل الطبقات (الجوهري، 2001).

أ. التمثّل الاجتماعي للمكانة الطبقية

من خلال الملاحظات الميدانية، اتضح أن أعضاء الطبقات الاجتماعية المختلفة في "يانكي سيتي" يعيدون إنتاج مواقعهم داخل النسق الطبقي من خلال التمثلات الاجتماعية، سواء عبر أنماط اللباس، أنماط السكن، العلاقات الاجتماعية، أو المؤسسات التي يرتادونها، فالطبقة العليا، على سبيل المثال، لا تعرف فقط من خلال ممتلكاتها، بل من خلال "سلوك رمزي" يظهر الرقي والانتماء التاريخي(Warner, 1980) ،

وهذا ما يعطي للطبقة طابعًا هوياتيا يعاد إنتاجه باستمرار من خلال الذاكرة الجماعية والعلاقات اليومية.

ب. الحراك الاجتماعي والحدود الرمزية

يشير وارنر إلى أن الحراك الاجتماعي في "يانكي سيتي" كان محدودا ومشروطا، وهو ما يعكس هيمنة "الحدود الرمزية" بين الطبقات، فالانتقال من طبقة إلى أخرى لا يتم فقط من خلال الكفاءة أو الثراء، بل يتطلب "قبولا اجتماعيا" من قبل الطبقة الأعلى، ما يؤكد أن النسق الطبقي لم يكن مجرد ترتيب اقتصادي، بل نظاما ثقافيا قائمًا على الاعتراف الرمزي (الجوهري، 2001)، وبهذا المعنى، فإن الحراك الاجتماعي في "يانكي سيتي" لا يفهم فقط بوصفه حركة عمودية، بل كتفاوض اجتماعي محكوم بشروط غير مكتوبة تعيد إنتاج التراتب الاجتماعي.

ج. الهوية الطبقية والاندماج الاجتماعي

تميزت دراسة وارنر بتحليل الهوية الطبقية كعامل أساسي في تفسير سلوك الأفراد داخل المجتمع، فالهوية الطبقية لم تكن مرتبطة فقط بالانتماء الاقتصادي، بل كانت تشكل منظومة قيمية تؤطر سلوك الأفراد واختياراتهم اليومية، بدءا من نمط الحياة، مرورا بتنشئة الأطفال، وصولاً إلى طبيعة العلاقات الزوجية والاجتماعية، وقد أشار وارنر إلى أن الأفراد كانوا يطورون نوعا من "الوعي الطبقي" الذي يوجه تفاعلاتهم، سواء داخل طبقتهم أو في علاقاتهم مع الطبقات الأخرى.(Warner, 1980)

د. البعد السياسي والثقافي للنسق الطبقي

تظهر الدراسة أن النسق الطبقي في "يانكي سيتي" لم يكن فقط تنظيما اجتماعيا داخليا، بل كانت له امتدادات سياسية وثقافية تمس طبيعة التمثيل السياسي المحلي، والسلطة الدينية، ومكانة الأقليات العرقية، فقد لاحظ وارنر أن العائلات العريقة كانت تحتكر غالبا مواقع القيادة المحلية والمؤسسات الثقافية، بينما ظلت الأقليات العرقية،

خاصة الإيطاليين والروس، في موقع التهميش الاجتماعي رغم مشاركتهم الاقتصادية الفاعلة(Warner, 1980) ، وهذا يعكس البنية اللامتكافئة للعلاقات الاجتماعية التي تمأسِس التمييز وتمنحه شرعية ثقافية.

هـ. إعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي عبر الزمن

يبرز التحليل السوسيولوجي أن النسق الطبقي في "يانكي سيتي" كان يتمتع بقدرة عالية على إعادة إنتاج نفسه عبر الزمن، وهو ما يجعل من النظام الطبقي ليس فقط ظاهرة تاريخية بل "بنية اجتماعية مقاومة للتغيير"، تعاد صياغتها باستمرار من خلال مؤسسات التنشئة، مثل المدرسة والأسرة والكنيسة، وتكرّس عبر الإعلام والعلاقات اليومية (الجوهري، 2001)، فالاستقرار الظاهري للمدينة كان يخفي صراعات ناعمة على المكانة والاعتراف، تمارس ضمنيا وتحسم رمزيا، مما يعكس تواطؤا خفيا بين الفاعلين الاجتماعيين للحفاظ على النظام القائم.

8. استنتاجات عامة للدراسة:

تكشف دراسة "يانكي سيتي" عن عبقرية سوسيولوجية في قراءة الديناميكيات الاجتماعية ضمن مجتمع محلي محدد، ولكنها تطرح اليوم كمرآة لفهم السياقات المجتمعية المعاصرة، حيث لا يزال النسق الطبقي، رغم تغير أشكاله، يفرض منطقه على التفاعلات الاجتماعية، وبذلك، فإن القيمة الحقيقية للدراسة تكمن في قدرتها على تجاوز الطابع الوصفي، نحو بناء نموذج تفسيري ينير طبيعة التفاوت، والاندماج، والصراع في المجتمعات الحديثة.

تبرز دراسة "يانكي سيتي" كأحد أعمدة التحليل السوسيولوجي الكلاسيكي التي مهدت لفهم النسق الطبقي في المجتمعات الصناعية الغربية، حيث لم تكن الدراسة مجرد وصف إثنوغرافي لحياة سكان مدينة صغيرة، بل مثلت مقاربة تحليلية دقيقة لكيفية تشكّل البناء الاجتماعي وفق منطق التدرج الطبقي، وحركية المكانة، والهوية الاجتماعية في سياق يتسم بالتغير الاقتصادي والثقافي المتسارع، وقد مثّل هذا العمل

نقلة نوعية من السوسيولوجيا الوصفية إلى سوسيولوجيا تفسيرية، قائمة على دمج أدوات البحث الميداني الكيفية بالتحليل البنيوي للأنساق الاجتماعية.(Warner, 1980)

يتجلى البعد السوسيولوجي الأعمق للدراسة في اهتمامها بكيفية إنتاج وإعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية عبر آليات غير مباشرة، كالثقافة اليومية، وأنماط التفاعل الرمزي، والمخيال الجماعي حول "الاحترام" و"السمعة" و"الأصل الاجتماعي"، فقد أظهر وارنر أن الطبقة ليست مجرد موقع اقتصادي، بل هي شبكة من التصنيفات المتداولة ضمن الثقافة المحلية، تمنح من خلال الاعتراف الجماعي، وتكرّس عبر الرموز الاجتماعية مثل طريقة اللباس، اللغة، شبكة العلاقات، وحتى طريقة قضاء أوقات الفراغ (الجوهري، 2001).

من خلال هذا التحليل، يتقاطع عمل وارنر مع الاتجاه البنائي الرمزي في علم الاجتماع، لا سيما في تفسيره للطريقة التي ينتج بها الأفراد هوياتهم الطبقية عبر التفاعل اليومي والرموز الاجتماعية، ويتضح ذلك في مفهوم "الاحترام الرمزي"، الذي يمنح لا بناءا على الثروة فقط، وإنما بناءا على "الانتماء التاريخي" و"الدم العائلي"، وهي مؤشرات ترتبط بالبنية الثقافية للمجتمع وليس فقط بمنظومته الاقتصادية، وبهذا يتوافق تحليل وارنر مع أطروحات بيير بورديو لاحقا حول "رأس المال الرمزي" و"التمييز الطبقي (Bourdieu, 1984).

كما أن الدراسة قدّمت تصورا عميقا حول الحراك الاجتماعي المغلق، حيث أظهر وارنر أن الارتقاء الطبقي لا يتم فقط من خلال العمل والكفاءة الاقتصادية، بل يشترط "القبول الطبقي" من الطبقات الأعلى، أي أن الحراك العمودي محكوم بمنظومة من الاعترافات الثقافية والاجتماعية التي تحد من فرص التقدم الطبقي حتى في حالة النجاح الاقتصادي، ويظهر ذلك جليا في حالات رجال الأعمال الجدد الذين لم يعترف بهم كـ"نخبة" بسبب عدم انتمائهم العائلي إلى الطبقة العليا التقليدية.(Warner, 1980)

ومن أبرز النتائج السوسيولوجية في الدراسة، أن التماسك الطبقي لا يعتمد على السيطرة الاقتصادية فقط، بل يتم دعمه من خلال أنماط التنشئة الاجتماعية والمؤسسات الرمزية، مثل المدرسة والكنيسة والنادي، التي تعيد إنتاج الحدود الطبقية عبر قوالب ثقافية تُملي "السلوك اللائق" لكل طبقة، وهنا يتجلى أحد الأبعاد الكلاسيكية في دراسة "يانكي سيتي"، حيث ربط وارنر البناء الطبقي بالنظام الثقافي العام، وليس فقط بالبنية الاقتصادية، مما يجعل تحليله متعدد الأبعاد ويستوعب التشابك بين البنى.

سوسيولوجيا، تعد "يانكي سيتي" دراسة نموذجية في تحليل الديناميكيات الدقيقة للتمايز الاجتماعي داخل فضاء محلي مغلق نسبيا، حيث تصبح المدينة المختبر الاجتماعي الأمثل لفهم "المجتمع الأمريكي الصغير" كتمثيل مصغر للأنماط الكبرى السائدة في المجتمع الأمريكي الحديث، وقد ساعد هذا النمط من التحليل على تقويض التصور الساذج للمجتمع الأمريكي كفضاء متساوٍ ومفتوح، وأكد أن "الحلم الأمريكي" لا يتحقق إلا وفق شروط طبقية ضمنية، يعاد إنتاجها باستمرار (الجوهري، 2001).

أخيرا، فإن الأهمية المنهجية لدراسة "يانكي سيتي" تكمن في قدرتها على الجمع بين الكم والكيف، بين التاريخ والواقع، بين الرمزي والمادي، وبين النظرية والملاحظة، وهي بذلك تؤسس لنموذج منهجي متكامل في البحث السوسيولوجي، يسبق في رؤاه كثيرا من الدراسات الحديثة التي تعنى بإعادة اكتشاف الطبقة في المجتمعات المعاصرة.

9. أهمية دراسة "يانكي سيتي" في علم الاجتماع المعاصر

تعد دراسة "يانكي سيتي" من المنجزات التأسيسية التي ما تزال تلهم الباحثين في علم الاجتماع المعاصر، سواء من حيث منهجها الميداني أو من حيث قدرتها التفسيرية على تحليل البنية الطبقية والرمزية في المجتمعات الحديثة، وتنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تمثل تجربة مبكرة في تفكيك الخطاب الإيديولوجي حول "العدالة الطبقية" في المجتمعات الرأسمالية، من خلال تقديم تصور ميداني دقيق عن كيفية اشتغال التمايزات الطبقية في الحياة اليومية للمجتمع الأمريكي.

لقد ساهمت الدراسة في إعادة تعريف مفهوم "الطبقة الاجتماعية" باعتبارها بنية مركبة تتجاوز المؤشرات الاقتصادية الصرفة، لتشمل عناصر ثقافية ورمزية واجتماعية، ما يجعلها أقرب إلى "الحقل الطبقي" كما تصوره لاحقا بيير بورديو، حيث تتقاطع رؤوس الأموال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لتشكيل مواقع الهيمنة والتبعية داخل المجتمع.(Bourdieu, 1984)

وتظهر أهمية "يانكي سيتي" في علم الاجتماع المعاصر من خلال كونها شكّلت نواة لنمط جديد من البحوث السوسيولوجية الميدانية، المعتمدة على الجمع بين التقنيات الكمية (الإحصاء، الاستمارات، الجداول التصنيفية) والتقنيات الكيفية (الملاحظة بالمشاركة، المقابلات، تحليل الخطاب)، وهو ما جعلها مرجعًا أساسيا في تعليم مناهج البحث الاجتماعي في الجامعات الغربية منذ منتصف القرن العشرين وحتى اليوم (Warner, 1980).

من جهة أخرى، فإن البعد المقارن في الدراسة أتاح للباحثين ملاحظة تكرار أنماط التراتب الطبقي في مدن أخرى، ما ساعد على إنتاج نظرية سوسيولوجية أكثر شمولًا حول "الطبقة" في المجتمعات الصناعية الغربية، فقد أظهرت النتائج أن التصنيفات الطبقية لا تقتصر على الواقع المحلي، بل هي تعبير عن ديناميكيات أوسع تتعلق بالتاريخ الثقافي والبنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع (الجوهري، 2001).

وتبرز أهمية الدراسة أيضا في تأثيرها الكبير على الدراسات الحضرية، حيث استخدمت مدينة "يانكي سيتي" كنموذج مصغر لدراسة التحولات الحضرية والعلاقات الاجتماعية في المجال الحضري، وقد ساعد هذا التوجه على تطوير ما بات يعرف لاحقا بـ"سوسيولوجيا المدينة الصغيرة"، باعتبارها إطارا تحليليا لفهم العلاقات الاجتماعية في بيئات محدودة الحجم ولكنها تمثّل مجتمعًا أوسع.(Wirth, 1938)

كما أن تحليل وارنر للبنية الطبقية لم يقتصر على مجرد التوصيف، بل كان نقديا ضمنيا، إذ أظهر أن اللامساواة متجذرة ثقافيا وتعاد شرعنتها عبر المؤسسات والرموز

والخطابات، وهذا ما يجعل دراسته تمهيدا مهما للاتجاه النقدي في علم الاجتماع، وخاصة لدى روّاد مدرسة فرانكفورت، الذين أكدوا على الأبعاد الإيديولوجية للطبقية والهيمنة.(Horkheimer & Adorno, 2002)

أما في السياق الأكاديمي العربي، فقد مثّلت "يانكي سيتي" مرجعا مهما في تطوير الفهم المحلي لمفهوم "الطبقة"، ودفعت ببعض الباحثين إلى مقاربة المجتمعات العربية من منظور طبقي رمزي وثقافي، بعيدا عن التوصيفات الاقتصادية الميكانيكية التي سادت في العقود الأولى من تطور الفكر السوسيولوجي العربي.

ختاما، فإن القيمة المعرفية لدراسة "يانكي سيتي" لا تكمن فقط في نتائجها، بل في مقاربتها المنهجية، وفي جرأتها على مساءلة السرديات الكبرى حول "الحرية الاجتماعية" و"المساواة الطبقية"، ولذلك تظل هذه الدراسة نموذجا حيا لما يمكن أن يقدمه البحث السوسيولوجي من أدوات لفهم الواقع، وتفكيك التمظهرات الزائفة للعدالة في المجتمعات الحديثة.

10. نحو فهم سوسيولوجي متجدد للطبقة والمجتمع

تُظهر دراسة "يانكي سيتي" في مجملها أن علم الاجتماع لا يكتفي بوصف الواقع الاجتماعي، بل يسعى إلى تفكيكه وفهم تعقيداته البنيوية والثقافية، فقد شكّلت هذه الدراسة، بما تحتويه من غزارة منهجية ودقة تحليلية، نموذجا رائدا في سوسيولوجيا الطبقات، عبر تحويل المدينة الصغيرة إلى مختبر اجتماعي يعكس التراتب الطبقي، والتفاوت الرمزي، وإعادة إنتاج الهيمنة ضمن الحياة اليومية.

لقد أوضح وارنر أن الطبقة ليست مجرد موقع اقتصادي، بل نسق ثقافي متكامل، تتقاطع فيه القيم والرموز والممارسات، ويعاد إنتاجه باستمرار عبر المؤسسات (كالأسرة، التعليم، العمل، والدين)، وهو ما يجعل فهم الطبقة في ضوء "يانكي سيتي" فهمًا ديناميكيًا متعدد الأبعاد، يتجاوز الحصر الإحصائي أو التصنيف الميكانيكي، ليصل إلى تحليل البنيات الذهنية والجمالية والسلوكية التي تحدد مكانة الأفراد داخل المجتمع.

وعليه، فإن الأهمية النظرية للدراسة تتمثل في تأصيل مقاربة سوسيولوجية للطبقة، تدمج بين المعايير الاقتصادية والرمزية، وتنفتح على التأويل الثقافي للتراتبات الاجتماعية، أما من الناحية المنهجية، فقد أرست الدراسة نموذجا متكاملا للبحث السوسيولوجي الميداني، يمزج بين الكمي والكيفي، ويسعى إلى فهم الظواهر من داخل السياق المحلي للفاعلين الاجتماعيين.

وفي السياق المعرفي، فإن "يانكي سيتي" لا تزال تمثل مرجعا مركزيا لأي محاولة لفهم المجتمع الرأسمالي من الداخل، حيث تبين كيف أن ما يبدو حرية فردية هو في كثير من الأحيان تموضع داخل شبكات غير مرئية من التصنيف والتهميش والتمايز الاجتماعي، ومن هذا المنظور، فإن دراسة "يانكي سيتي" تظل راهنة، بل وتزداد أهمية في ظل تعقّد المجتمعات الحديثة، واتساع الفجوة بين الخطاب الديمقراطي والواقع الطبقي القائم.

لذلك، فإن العودة إلى "يانكي سيتي" اليوم ليست استرجاعا لماضي بحثي، بقدر ما هي تأكيد على ضرورة التسلّح بمنهجية نقدية تعيد مساءلة البنى الاجتماعية وتضيء المساحات الرمادية في الحراك الطبقي المعاصر، فهي دعوة لاستثمار التراث السوسيولوجي الكلاسيكي في قراءة التفاوتات الجديدة، سواء في الغرب أو في السياقات العربية، حيث تتخذ الطبقة ملامحها الخاصة ولكنها تظل أسيرة لمنطق الهيمنة نفسه.

الفصل السادس :دراسات في سوسيولوجيا الفقروالطبقات الاجتماعية

القسم الأول: التحليل السوسيولوجي لمجتمع النواصي في ضوء نموذج و ايت

لقد شكلت دراسة "مجتمع النواصي" تحولا نوعيا في علم الاجتماع الحضري، ليس فقط من حيث الأسلوب المنهجي، بل من حيث عمق التحليل السوسيولوجي الذي قدمه ويليام فوت وايت، والذي يمكن قراءته من منظورين متكاملين :منظور التفاعل الرمزي وسوسيولوجيا السلطة والعلاقات الشبكية.

1. التفاعل الرمزي وبناء الهوية في مجتمع النواصي

اعتمد وايت على منظور التفاعل الرمزي(Symbolic Interactionism) ، حيث ركّز على كيفيات إنتاج المعنى الاجتماعي من خلال التفاعل اليومي، فالفرد في مجتمع كورنفيل لم يكن يقيّم بناءا على خصائصه الموضوعية مثل التعليم أو الدخل، وإنما من خلال موقعه الرمزي داخل الجماعة، وقدرته على أداء أدوار محددة مثل "الوسيط"، "القائد"، أو "المبادر"، فقد أظهرت الدراسة أن الشباب الذين يحتلون موقعا مركزيا داخل شبكات العلاقات –مثل قادة النواصي– يحظون باعتراف اجتماعي أكثر من أولئك الذين يقفون على هامش الجماعة.(Whyte, 1943)

من هنا يتضح أن المكانة الاجتماعية ليست معطى ثابتا بل هي نتاج "أداء اجتماعي" متكرر ضمن أنساق محددة من التفاعل، وقد لعبت الأنشطة اليومية، مثل لعبة البولنج أو المشاركة في المقامرة، دورا في بناء هذه الرمزية الجماعية، حيث أصبحت وسيلة لإعادة إنتاج التراتب الاجتماعي داخل الجماعة (الجوهري، 2005).

2. السلطة الشبكية والزعامة غير الرسمية

في إطار تحليل سوسيولوجي حديث يستند إلى مفاهيم السلطة الشبكية (Networked Power)كما تناولها علماء الاجتماع المعاصرون مثل مانويل كاستلز، يمكن

القول إن مجتمع النواصي يمثل نموذجا أوليا للسلطة غير الرسمية التي لا تتأسس على شرعية مؤسساتية، بل على شرعية ناتجة عن التفاعل الاجتماعي والتفاوض اليومي على الموارد والنفوذ.

لقد ركز وايت على دور "الوسطاء" الذين يقومون بتنسيق العلاقات بين "الكبار" (السلطة السياسية والشرطة) و"الصغار" (الفئات الهامشية)، وهو ما يعكس وجود شبكة معقدة من التحالفات تقوم على تبادل المنافع، حيث تسعى كل فئة إلى حماية مصالحها(Whyte, 1943) ، وتُبرز هذه البنية أن السلطة ليست هرمية بقدر ما هي موزعة عبر شبكة من العلاقات الرمزية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا ينسجم مع مفهوم "السلطة المرنة" الذي يتغير موقعها بتغير توازن العلاقات داخل الحقل الاجتماعي.

3. سوسيولوجيا الفضاء الحضري والهامش

قدّم وايت قراءة دقيقة للهامش الحضري من خلال تحليل حي كورنفيل باعتباره فضاءً هامشيا يشهد إعادة إنتاج للتمايز الاجتماعي والسياسي، وقد أظهرت دراسته كيف يعيد الفضاء إنتاج نفسه عبر آليات مثل العزل المكاني، وتركيز النفوذ في أيدي قلة تمتلك علاقات مع السلطة المحلية، إضافة إلى استخدام الأنشطة الاقتصادية غير الرسمية كوسائل للنفوذ الاجتماعي.

ويبدو واضحا أن مجتمع كورنفيل يعاني مما يمكن تسميته بـ"التهميش المؤسَّس " (Institutionalized Marginality)، حيث تعمد السلطة الرسمية إلى تركيز الاهتمام على مناطق أخرى، مما يتيح لعصابات النواصي تطوير مؤسساتهم الموازية التي تسد الفراغات الناتجة عن غياب الدولة، مثل تقديم "الحماية"، أو تنظيم النشاطات الاقتصادية الرمادية (الجوهري، 2010).

4. دروس نظرية ومنهجية من تجربة وايت

قدم وايت من خلال تجربته نموذجا مميزا لما يعرف اليوم بـ"السوسيولوجيا الملتزمة(Engaged Sociology) "، حيث لم يكن مجرد مراقب محايد بل تماهى مع بعض الجماعات قيد الدراسة، مما أتاح له التقاط تفاصيل دقيقة عن السلوك اليومي والديناميكيات الجماعية، إلا أن هذا الانخراط الميداني طرح تساؤلات حول الحياد العلمي وحدود التفاعل الشخصي في البحوث الاجتماعية.

ورغم ذلك، فإن قيمة عمل وايت تكمن في تجاوز الوصف إلى بناء نموذج تفسيري قائم على التفاعل، الهيمنة الناعمة، وتعدد مصادر السلطة، فقد استطاع أن يدمج بين التحليل البنيوي الكلاسيكي والتحليل التأويلي الحديث، مما جعل "مجتمع النواصي" مرجعا أساسيا في تحليل المجتمعات الهامشية في السياق الحضري.

القسم الثاني: الأزمة الأمريكية في ضوء أطروحة "جونار ميردال" – قراءة تأويلية ونقدية

لطالما وصفت الديمقراطية الأمريكية بأنها تجربة رائدة في التنظيم السياسي والحقوقي، إلا أن هذه الصورة "المثالية" سرعان ما تتكسر حين توضع على محك التجربة العرقية، وخاصة في علاقة البيض بالأمريكيين من أصل إفريقي، لقد شكّلت هذه العلاقة – بما تحمله من تاريخ طويل من الاستعباد والعزل والتهميش – قلب الإشكالية التي حاول العالم السويدي جونار ميردال تفكيكها، حيث لم تكن دراسة ميردال مجرّد مسح اجتماعي، بل كانت – في عمقها – تشريحا أخلاقيا لمجتمع يعيش انقساما داخليا بين "ما يؤمن به" و"ما يفعله."

1. مدخل إلى النسق التفسيري عند جونار ميردال

في أعماله، خصوصا دراسته حول "الأزمة الأمريكية"، قدّم ميردال ما يشبه المرآة الصادمة للضمير الأمريكي، كان يؤمن بأن المجتمعات لا تنهار بسبب مشكلاتها، بل بسبب

عجزها عن مواجهة هذه المشكلات ضمن منظومة أخلاقية متسقة، وهنا يبرز مفهومه الجوهري" :التناقض بين العقيدة الأمريكية والواقع العرقي – "حيث تتغنى الدولة بالحرية والمساواة، بينما تكرّس نظاما متجذرا في التمييز والاستبعاد.

تبنّى ميردال ما سماه بـ"نظرية السببية الدائرية"cumulative causation ، مفادها أن الفقر والإقصاء الاجتماعي لا ينتجان فقط عن ظروف اقتصادية، بل يعاد إنتاجهما بشكل تراكمي في سياق ثقافي ومؤسساتي يكرّس الإقصاء ويحوّله إلى نمط حياة،وبهذا الفهم، فإن الفقر ليس حالة طارئة، بل بنية اجتماعية/نفسية/مؤسسية تتغذى من ذاتها.

- **قراءة مقارنة** :إذا قارنّا طرح ميردال بمدرسة التبعية اللاتينية André Gunder) Frank، على سبيل المثال)، نجد تشابها في فهم العلاقات غير المتكافئة، لكن ميردال ركز على البعد القيمي الداخلي للمنظومة، لا فقط على القوى الخارجية.

2. أزمة القيم في المجتمع الأمريكي – السود بوصفهم "الآخر الداخلي"

ما يميز دراسة ميردال عن غيرها هو إدراكه المبكر لأزمة القيم التي تعصف بالمجتمع الأمريكي، فلقد رأى أن أكبر مأزق يواجهه الأمريكيون ليس الفقر أو الجريمة، بل الفصام القيمي بين "الإعلان" و"الممارسة"، فالسود، في هذا السياق، لم يكونوا فقط ضحايا للتهميش، بل ضحايا لفقدان الاعتراف الأخلاقي بإنسانيتهم.

ومن هنا جاء سؤاله الجوهري :كيف يمكن لمجتمع يؤمن بالمساواة أن ينتج هذا القدر من العنصرية؟

دراسته لم تكتف بوصف الفجوة، بل فتحت سؤالا أخلاقيا حول تواطؤ النخب السياسية والمؤسسات التعليمية والكنائس في تكريس هذه البنية اللا متكافئة.

3. عنف الدولة وآليات الإقصاء الخفي

تبرز تقارير ميردال أدوارا بنيوية خفية تمارس فيها الدولة أشكالا من العنف غير المباشر: كسياسات الحد الأدنى للأجور التي تقصي غير المهرة (وأغلبهم من السود)، أو التوزيع الجغرافي غير العادل للمدارس، أو حتى الممارسات "الحيادية ظاهريا" لكن ذات التأثير العنصري، مثل قوانين الانتخابات أو تأطير الإعلام للمشكلات.

- **مقارنة تطبيقية** :ما رصده ميردال في الأربعينات نجده اليوم في سياسات السكن في الولايات المتحدة(redlining) ، وفي الفجوة التعليمية التي ما زالت تنتجها المدارس ذات الأغلبية السوداء.

4. ميردال ونقد "التكامل الاجتماعي التلقائي"

رغم تفاؤل ميردال النسبي بأن التقدم الاقتصادي سيقود إلى ذوبان التمايزات العرقية، إلا أن قراءته حملت بذور تشكك خفي: إذ لاحظ أن بعض السود الذين وصلوا إلى طبقات متقدمة فضّلوا الانعزال عن المجتمع الأبيض بدلا من الاندماج فيه، مما يشير إلى عمق الجراح الرمزية والاجتماعية التي لا تداوى فقط بالنمو الاقتصادي.

- **تأويل نقدي** :التكامل ليس فقط فرصة مادية، بل حاجة رمزية للاعتراف، ولا يمكن بناؤه دون عدالة رمزية تعيد للمهَمَّشين صوتهم ومكانتهم.

5. راهنية ميردال – لماذا لا تزال دراسته حاضرة؟

قد يظن البعض أن دراسة تعود إلى منتصف القرن العشرين قد فقدت صلاحيتها، غير أن قراءة ميردال تظل حاضرة، بل شديدة الحيوية، في ظل تصاعد الاحتجاجات العرقية في أمريكا (مثل حركة(Black Lives Matter ، يعود هذا إلى كونها ليست فقط دراسة في "السلوك"، بل في "الضمير الاجتماعي."

خاتمة

جونار ميردال لم يكن مجرد باحث أجنبي يراقب أمريكا من الخارج، بل كان، من خلال عدسة القيم، ناقدا حادا لمجتمع ينتج التناقضات، ويخفيها تحت عباءة القانون والدين والليبرالية، لذا، فإن القيمة الكبرى لدراسته تكمن في أنها لا تسعى فقط إلى "فهم الظاهرة"، بل إلى "إعادة مساءلة العقيدة التي أنتجت الظاهرة"، وهذا ما يجعلها نموذجًا في البحث السوسيولوجي النقدي، ودعوة إلى أن تكون الدراسات الاجتماعية أكثر انخراطا في فضاء التأويل الأخلاقي والسياسي، لا أن تكتفي بوصف الأشياء كما هي.

6. الأزمة الأمريكية في ضوء تحليل جونار ميردال – قراءة في بنيات التمييز العرقي والديناميكيات الاجتماعية

في قلب التجربة الديمقراطية الأمريكية، ثمة مفارقة صارخة تتعلق ببنية السلطة والعرق، فقد أسّس التاريخ الأمريكي، لا سيما في القرن التاسع عشر، منظومة عرقية قائمة على تصور دونية الأمريكيين الأفارقة، إذ لم يكن الاستعباد مجرد ممارسة اقتصادية، بل تحوّل إلى بنية مؤسساتية مدعومة قانونيا وثقافيا، ومن هذا المنطلق، تبدو الديمقراطية الأمريكية، كما أشار ميردال، "واحدة من أكثر التجارب التي تجمع بين المثالية السياسية والمفارقة الاجتماعية" (Myrdal, 1944)، إن الإصرار على التناقض بين المبادئ الليبرالية—الحرية، العدالة، والمساواة—والممارسات العنصرية المتجذرة، يشكّل مدخلا تحليليا لفهم ما يسميه ميردال بـ"المعضلة الأمريكية" (The American Dilemma).

7. مدخل إلى الأزمة – تأطير نقدي لمشروع ميردال

اختارت مؤسسة "كارنيجي" الاقتصادي السويدي جونار ميردال لإجراء دراسة شاملة عن "مشكلة الزنوج في أمريكا"، على الرغم من كونه غريبا عن المجتمع الأمريكي، وذلك رغبة في تفادي التحيزات المتأصلة لدى الباحثين المحليين، فكتب ميردال عمله الأشهر "The American Dilemma" عام 1944، مؤسسا فيه لنموذج تفسيري لا يتعامل

مع العرق كمجرد عنصر ثقافي، بل كمنتج لعلاقات قوى اقتصادية وسياسية تتفاعل في سياق تراكم تمييزي (Myrdal, 1944).

ركز ميردال على ما أسماه بـ"النسبية التراكمية" (Cumulative Causation)، وهي نظرية ترى أن الفقر لا يعيد إنتاج نفسه فقط، بل يعزز عبر تفاعلات سلبية بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفي هذا الإطار، تصبح العرقية ليست مجرد "موقف"، بل آلية لإعادة إنتاج التهميش عبر أجيال (Myrdal, 1957).

من خلال هذه الرؤية، تظهر الأزمة الأمريكية كمحصّلة لعدة تراكمات سوسيولوجية ومعرفية، لا كحدث طارئ أو اختلال وظيفي، وهنا، نلمس صدىً لمفاهيم لاحقة لدى منظّرين مثل بيير بورديو الذي سيطور مفهوم "العنف الرمزي" لشرح كيف تتحول الهيمنة إلى ممارسة لا تدرك من قبل الخاضعين لها (Bourdieu, 1984).

8. تحليل البنية الاجتماعية والتناقض القيمي في المجتمع الأمريكي

أحد أكثر الجوانب الإبداعية في مشروع ميردال هو تفكيكه للبنية القيمية البيضاء، والتي تقوم، حسب تحليله، على ازدواجية أخلاقية: فمن جهة، يعلي المجتمع الأبيض من شأن المثل العليا—الحرية، العدالة، والكرامة الإنسانية—ومن جهة أخرى، يشرعن التمييز ضد السود ويبرّره بذرائع ثقافية وسلوكية (Myrdal, 1944)، وهذا التناقض القيمي يؤسس لما يمكن تسميته بالعنف الرمزي المؤسسي، حيث يتحول القانون والدين والتعليم إلى أدوات لتعميق التفرقة العرقية بدلا من تقويضها.

ويكمن الإسهام الأكبر لميردال في تفكيكه للتسلسل التمييزي الذي يتجلى أولا في تحريم العلاقات الجنسية والتزاوج بين البيض والسود، ثم فصلهم في الفضاءات العامة، وأخيرا في تجريدهم من الحقوق المدنية، بهذا، تتحول العنصرية إلى بنية تراتبية تشمل الرمزي والاجتماعي والسياسي (Myrdal, 1994).

لقد فهم ميردال أن التمييز ليس ظاهرة اجتماعية سطحية، بل نظام إنتاجي يُعيد توليد نفسه عبر سلسلة من التفاعلات التراكمية؛ وهو ما يجعل السياسات الليبرالية غير كافية وحدها لحله، إذا لم تُرافقها تحولات عميقة في بنى الإدراك الجماعي والعلاقات الاقتصادية.

9. نتائج الدراسة: قراءة تأويلية في ضوء المفاهيم السوسيولوجية المعاصرة

انطلاقا من التحليل السابق، يمكن بلورة نتائج ميردال في ضوء المفاهيم السوسيولوجية المعاصرة على النحو التالي:

- **-الرفض البنيوي للاندماج:** أشار ميردال إلى أن الرفض شبه الكامل للاندماج بين البيض والسود، خصوصًا من قبل الفئة البيضاء المهيمنة، يشكل أحد الأعمدة الأساسية لإعادة إنتاج التمييز (الجوهري، 2021)، وهذا الموقف الجماعي يعكس ما يسميه إيمانويل والرشتاين بـ"العنصرية البنيوية" التي تُعدّ عنصراً وظيفياً في النظام الرأسمالي العالمي (Wallerstein, 2004).
- **-الفقر كآلية تهميش متكررة:** أظهر ميردال كيف أن الفقر ليس فقط نتيجة التمييز، بل أيضا وسيلة لاستدامته، فالعنصرية، كما يبيّن، تغذي الفقر، وهذا الأخير يعزز الصور النمطية ضد السود، مما يعيد إنتاج العنصرية، وهنا نجد تقاطعًا مع مفاهيم "الحلقة المغلقة" التي تناولها لاحقا مفكرون مثل أميل دوركهايم في تفسير الفعل الاجتماعي المكرّر عبر الأنساق المجتمعية (Durkheim, 1982).
- **-التراكم غير المتكافئ:** تبيّن دراسة ميردال أن الأميركيين الأفارقة لم يتمكنوا من الاستفادة من الفرص الاقتصادية في ذات المستوى مع نظرائهم البيض، وهو ما يُعيدنا إلى تحليل والتر رودني في كتابه كيف أفقرت إفريقيا؟، حيث يظهر كيف تشتغل النظم الاقتصادية على استنزاف الفئات المُهمشة واستبعادها (Rodney, 1972).
- **-الإيديولوجيا كغطاء أخلاقي للتمييز:** أوضح ميردال أن المسيحية البيضاء استخدمت لتبرير التمييز، ما يشكل مثالا كلاسيكيا على ما يسميه كارل ماركس "بالأيديولوجيا الزائفة" التي تشرعن الاستغلال باسم الأخلاق (Marx & Engels, 1845/1970).

10. الأثر الأكاديمي والديناميكيات اللاحقة – من "ميردال" إلى "كرامير" و"دو بوا"

تعدّ دراسة ميردال نقطة تحول في التحليل السوسيولوجي الأمريكي، إذ مهّدت الطريق لأعمال لاحقة مثل كتاب "Black Reconstruction" لدبليو. إي. بي. دو بوا (Du Bois, 1935)، الذي أكد أن الأزمة العرقية لا تفهم دون تحليل الطبقة والسلطة معا، كما ألهمت تحليلات ميردال علماء الاجتماع مثل إليجاه أندرسون في تفسير "المساحات المتنازع عليها" بين البيض والسود في الحضر الأمريكي (Anderson, 2011).

وبالعودة إلى حاضرنا، تظهر تحليلات تا-نهيزي كوتس وكورنيل ويست استمرار ما يسميه ميردال بـ"الديناميكية التراكمية للتمييز"، ولكن بلغة جديدة تحاكي تصاعد الاحتجاجات، مثل حركة "Black Lives Matter"، كرد فعل على نفس البنيات التراتبية التي حللها ميردال قبل ثمانين عامًا.

11. استنتاجات الدراسة

إن قراءة مشروع ميردال بمنهج تأويلي ناقد تبرز أنه لم يكن مجرد وصف للتمييز العنصري، بل تحليل متكامل لعلاقات القوى، والرموز، والسياسات، والقيم، التي تشكّل ما أسماه "الأزمة الأمريكية"، ويكمن جوهر هذا التحليل في تفكيك التعارض البنيوي بين الأيديولوجيا الليبرالية والممارسة العنصرية، ومن هنا، فالقيمة السوسيولوجية لهذا العمل لا تكمن في نتائجه فقط، بل في المنهج الذي يقترحه: الربط بين الاقتصاد، الثقافة، الأخلاق، والسياسة ضمن تحليل شامل للمجتمع.

جدول مقارنة بين تحليل "جونار ميردال" وتحليلات حديثة مثل أعمال "تا-نهيسي كوتس" و"ويليام دو بوا" حول القضايا العرقية والتمييز العنصري:

المعيار	تحليل جونار ميردال (1944)	تحليل تا-نهيسي كوتس (2015)	تحليل ويليام دو بوا (1903)
السياق الزمني والمكاني	دراسته "The American Dilemma" كانت في سياق	كان في السياق المعاصر، مع التركيز على القضايا	تناول قضية العرق في أمريكا في أوائل القرن

	منتصف القرن العشرين، مع التركيز على العرق في الولايات المتحدة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.	العرقية في أمريكا المعاصرة، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الاستعباد والنظام العنصري.	العشرين، مع التركيز على تكوين الهوية السوداء في سياق التمييز العنصري المؤسسي.
مفهوم الأزمة	الأزمة الأخلاقية الأمريكية؛ التناقض بين المبادئ الليبرالية والممارسات العنصرية.	أزمة الهيكلية العنصرية: ما أسماه "القفص الأسود" الذي يعيق التقدم المتساوي للسود.	"مشكلة القرن الواحد والعشرين": كيف أن العنصرية تعوق التقدم الشخصي والاجتماعي للأمريكيين من أصول إفريقية.
التحليل الهيكلي	ركّز على التمييز الهيكلي الذي يتغلغل في الاقتصاد والتعليم والرعاية الصحية والتوظيف.	ناقش كيف أن العنصرية البنيوية لا تزال موجودة في المؤسسات والسياسات الأمريكية الحديثة، مثل الشرطة والعدالة الجنائية.	رأى العنصرية كظاهرة جماعية ناتجة عن الانقسام العرقي في المجتمع الأمريكي، وعبر عن رفضه للفصل العرقي والمطالبة بالحقوق الكاملة للسود.
النهج السوسيولوجي	تحليلات سوسيولوجية مستندة إلى مفهوم "التراكم النسبي" وكيف أن التمييز يعاد إنتاجه عبر الزمن.	تناول العلاقة بين العنصرية والاقتصاد والطبقات الاجتماعية. ناقش كيف يؤثر التمييز العنصري على الهوية والجماعية.	كان له نهج اجتماعي تاريخي يركز على الثقافة السوداء والحقوق المدنية في ظل التمييز العنصري.
الأدوات التحليلية	اعتمد على مفهوم "الحلقة المفرغة للفقر" التي تشرح كيف أن التهميش الاجتماعي والاقتصادي يترسخ من خلال التعليم، العمل، والخدمات الصحية.	"القفص الأسود": كيف أن الظلم المؤسسي يظل قائمًا من خلال الهيكل الاقتصادي والسياسي.	تحليل القوة الثقافية والسياسية للأمريكيين السود، والتمييز العنصري بوصفه هيكليًا ومؤسساتيًا.

التناقض الأمريكي	استعراض التناقض بين القيم الليبرالية (الحرية والمساواة) والممارسات العنصرية اليومية.	تحدث عن التناقض بين الادعاء بالقيم الأمريكية (الحرية والمساواة) والواقع العنصري المؤسسي المستمر.	تناول التناقض بين الوعود المعلنة للحرية والمساواة في أمريكا والتمييز الذي يعاني منه السود.
أبعاد العنصرية	العنصرية هي أكثر من مجرد موقف فردي، بل هي بنية مؤسساتية تقيد السود في كل جانب من جوانب الحياة الأمريكية.	العنصرية بنيوية ومؤسساتية، حيث تقف الحواجز الاجتماعية والاقتصادية أمام التقدم المتساوي للسود.	العنصرية ليست فقط نتيجة سياسات الفصل، بل تتعلق أيضًا بالهوية الثقافية للأمريكيين السود.
الإمكانات التغيير	رغم الإشارة إلى أنه من الممكن أن تتغير الظروف من خلال الإصلاحات الاقتصادية والسياسية، إلا أن ميردال كان يشكك في إمكانية حل المشكلة في وقت قصير.	دعا إلى وعي جمعي للتغيير مع التركيز على فهم العنصرية البنيوية والإصلاحات في مؤسسات الدولة.	كان يدعو إلى تحولات اجتماعية جذرية تضمن الحقوق المدنية والمساواة للأمريكيين من أصول إفريقية.

هذا الجدول يظهر اختلافات واضحة في مقاربات الثلاثة لتحليل الأزمة العنصرية في أمريكا، مع مراعاة السياقات الزمنية والمكانية التي جاء فيها كل منهم، ولكنهم جميعا اتفقوا على ضرورة التحليل البنيوي والعميق للأزمة العنصرية في المجتمع الأمريكي.

12. المصادر المؤثرة في تطور البحث السوسيولوجي:

يظهر من خلال البحث أن هناك مصادر متعددة أسهمت بشكل كبير في تطور البحث السوسيولوجي، خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث بدأت التوجهات السوسيولوجية في الظهور بشكل موسع، وتطورت هذه الاتجاهات

بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الثانية في دول أخرى، وتبرز في هذا السياق أبرز المساهمات في هذا المجال مثل علم الحساب السياسي وعلم الاجتماع الوصفي، اللذين كان لهما تأثير بالغ في الفكر السوسيولوجي، وخصوصا في إنجلترا خلال القرن السابع عشر (الجوهري، 2021).

من جانب آخر، يظهر تأثير الفلاسفة مثل أدولف كيتيليه، الذي صاغ مفهوم "الفيزياء الاجتماعية"، وكذلك التأثيرات الناجمة عن المسوحات الاجتماعية التي أجرتها الجهات الرسمية في فرنسا تحت النظام القديم، التي سعت إلى تقديم رؤى اجتماعية تتسم بالدقة العلمية (الجوهري، 2021).

إن معظم الدراسات التي ساهمت في تطور هذا المجال تم تنفيذها من قبل علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس، بالإضافة إلى الباحثين الهواة الذين قدموا إسهامات هامة في تقديم رؤى عميقة حول الظواهر الاجتماعية من خلال آليات علمية وتقنيات بحثية متنوعة، كما أن هناك تفاعل مستمر بين علوم الاجتماع وعلم النفس، مما يعكس تكامل العلوم الإنسانية في تقديم تحليل أشمل للواقع الاجتماعي، ومن هنا، فإن فصل هذه العلوم عن بعضها يعد أمرا غير ممكن، إذ تتكامل بشكل جوهري (الجوهري، 2021).

ومع التوجهات المستقبلية، من المتوقع أن يشهد علم الاجتماع مزيدا من الدراسات المتخصصة التي تعمق الأبحاث في موضوعات محددة، مع انخفاض الاعتماد على الدراسات العامة التي تتناول القضايا الاجتماعية من منظور شامل وعام (الجوهري، 2021).

القسم الثالث: المصادر المؤثرة في تطور البحث السوسيولوجي

1. إسهامات مدرسة شيغاكو الثانية

بحلول نهاية الخمسينيات، كانت السوسيولوجيا الأمريكية تشهد هيمنة لمدرستين فكريتين بارزتين، تتمثل الأولى في النظرية البنيوية-الوظيفية التي صاغها تالكوت بارسونز،

في حين كانت الأخرى تمثل السوسيولوجيا التكميلية والإحصائية التي اقترحها بول لازار سفيلد، وبينما كان لهاتين المدرستين تأثير كبير في تشكيل الفكر السوسيولوجي الأمريكي، برزت ردود فعل قوية أدت إلى ظهور "مدرسة شيغاكو الثانية"، التي شكلت نقطة تحول جوهرية في الفكر السوسيولوجي الأمريكي (بلكين، 2020).

تأسست مدرسة شيغاكو الثانية، المعروفة أيضًا بالتفاعلية الرمزية، على يد هربرت بلومر في عام 1918، وتعد هذه المدرسة بمثابة مرحلة جديدة في السوسيولوجيا الأمريكية التي اعتمدت على تحليل التفاعلات اليومية بين الأفراد، حيث قدمت هذه المدرسة مفهوما مبتكرا حول كيفية بناء المعاني في المجتمع، بعيدا عن التركيز على البُنى الاجتماعية الكبرى كما فعلت المدارس السابقة (الجبوري، 2022)، وفي هذا السياق، قدّم الباحثون في هذه المدرسة، من بينهم هوارد بيكر وإرفينغ غوفمان، تحليلا جديدا لمفهوم الهوية الاجتماعية، حيث أصبح "العرض الاجتماعي" محوريا لفهم كيفية تشكيل الأفراد لصورهم الاجتماعية أمام الآخرين (الجبوري، 2022).

2. دراسة ثقافة الفقر(لويس أوسكار)

في مجال دراسة الفقر، قدّم لويس أوسكار في ستينيات القرن الماضي مفهوما عميقا حول "ثقافة الفقر"، التي اعتبرت أداة لفهم الأبعاد الاجتماعية والنفسية للفقر، حيث استند أوسكار إلى أبحاث ميدانية في أمريكا الوسطى والجنوبية، وعلى وجه الخصوص في بورتو ريكو والمكسيك، ليوضح التفاعل المعقد بين الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للفقر، عبر ملاحظاته الثاقبة على حياة الفقراء في هذه المناطق (Oscar, 1961)، من خلال هذه الدراسات، أظهر أوسكار كيف أن الفقر ليس مجرد حالة اقتصادية بل هو ثقافة تتشكل عبر تفاعلات اجتماعية ونفسية تُنقل من جيل إلى جيل.

3. مفهوم ثقافة الفقر:

يعتبر الفقر من أقدم المشكلات التي واجهتها المجتمعات البشرية، لكن لا يقتصر الفقر فقط على الأبعاد الاقتصادية، بل يشمل أيضا أبعادا ثقافية ترتبط بتفسير الأفراد لأوضاعهم الاجتماعية (جبر، 2004)، فقد اعتبر أوسكار الفقر بمثابة أسلوب حياة خاص بالفقراء، يتضمن ممارسات اجتماعية تنتقل من جيل إلى جيل ضمن أسر فقيرة، وهو ما يعكس قدرة الأفراد على التكيف مع واقعهم الاجتماعي والاقتصادي القاسي (عمر، 1992)، على عكس مفهوم الفقر الذي يرتبط أساسا بالحرمان من الاحتياجات الأساسية، يبرز مفهوم "ثقافة الفقر" كمفهوم أكثر تعقيدا يتضمن أساليب حياة معقدة وسلوكيات يتم تعلمها عبر الأجيال وتساهم في استمرار هذه الحالة.(Oscar, 1961)

4. خصائص ثقافة الفقر:

أحد أهم الخصائص التي حددها أوسكار لثقافة الفقر هي الشعور بالإقصاء الاجتماعي، حيث يعاني الأفراد من العزلة عن المجتمع الأوسع ويواجهون صعوبة في الوصول إلى الفرص الاقتصادية والاجتماعية، كما تتسم ثقافة الفقر بانتشار البطالة، انخفاض الأجور، وزيادة معدلات الأمراض. لكن المثير للاهتمام هو كيف يتم تشكيل هذا السلوك الثقافي عبر الأجيال، حيث ينشأ لدى الأفراد ميل إلى مقاومة التغيير بسبب قناعتهم أن المؤسسات الاجتماعية والسياسية لا تلبي احتياجاتهم الأساسية، مما يعزز مشاعر الاغتراب والعجز.(Oscar, 1961)

5. دراسة ثقافة الفقر عند "أوسكار لويس"

تعد دراسة الفقر من المواضيع الأساسية في حقل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث يسعى الباحثون لفهم أبعاده البنيوية والإنسانية والثقافية وتأثيراته العميقة على الأفراد والمجتمعات، وفي هذا السياق، يأتي إسهام العالم الأنثروبولوجي أوسكار لويس بوصفه نقطة تحول في طريقة التفكير حول الفقر، حيث ابتكر مفهوم "ثقافة الفقر " (Culture of Poverty)في عام 1959، وأوضح من خلاله كيف أن الفقر لا يعتبر مجرد

حالة اقتصادية بحتة، بل ظاهرة ثقافية اجتماعية ذات بنية ثابتة، تنشأ وتستمر نتيجة لتفاعلات اجتماعية معقدة، تلعب فيها العوامل الاقتصادية والتمييز الاجتماعي دورا مركزيا(Lewis, 1966) ، وتعتبر أبحاث لويس حجر الزاوية لفهم كيفية تأثير الظروف الاقتصادية على تشكيل ثقافة معينة، يتم تناقلها بين الأجيال.

6. الإطار المنهجي لدراسة أوسكار لويس

اعتمد لويس في أبحاثه على منهجية أنثروبولوجية ميدانية، حيث قام بتطبيق تقنية الملاحظة بالمشاركة (Participant Observation) التي كانت بمثابة الأداة الأساسية لجمع البيانات، ويتجلى ذلك في تقاريره المستفيضة حول حياته اليومية في الأحياء الفقيرة في مدينة مكسيكو، وبورتوريكو، ونيويورك، ولقد كان لويس جزءا من حياة الأفراد الذين درسهم، مسجلا محادثاتهم اليومية عبر جهاز التسجيل الصوتي، وموثقا تجاربهم الاجتماعية من خلال مقابلات معمقة حول حياتهم الشخصية والعائلية.(Lewis, 1966)

في دراسة لويس الأولى "الحياة اليومية لخمسة أسر في مدينة مكسيكو" (1959)، كشف عن خصائص الحياة في الأحياء الفقيرة وتفاعل الأفراد مع الواقع المعيشي الصعب، حيث كانت هذه الأسر، على الرغم من اشتراكها في الفقر، تميزها بعض الفوارق في مستويات التكيف مع الوضع الاجتماعي، وهو ما دفع لويس إلى أن يطور مفهوميًا نظريًا، ركز على تأثير الفقر ليس فقط كحالة اقتصادية بل كنمط ثقافي مستمر، وقد قدم لويس هذا من خلال دراسته الشهيرة "أطفال سانشيز" (1961)، حيث ركز على كيفية تأثير الفقر على الأطفال وأثره النفسي والاجتماعي طويل الأمد على هويتهم وأحلامهم المستقبلية .

7. خصائص ثقافة الفقر عند أوسكار لويس

حدد لويس مجموعة من الخصائص التي تميز "ثقافة الفقر"، وهي السمات التي تميز المجتمعات الفقيرة وتجعلها تختلف عن المجتمعات الأكثر رفاهية:

الانعزال الاجتماعي وغياب الوعي الطبقي :يرى لويس أن الأفراد في الأحياء الفقيرة يعانون من غياب الوعي الطبقي، مما يجعلهم يفتقرون إلى المشاركة الفعالة في الحركات السياسية والاجتماعية، وهو ما يعزز شعورهم بالعزلة والتهميش، وهذا الوضع يجعلهم في حالة من العجز، حيث يفتقدون القدرة على التأثير في الواقع الاجتماعي والسياسي (Lewis, 1966).

- **ضعف الطموح والشعور بالدونية** :يؤكد لويس أن الأفراد الذين يعيشون في بيئات فقيرة يعانون من تدني الطموحات وغياب الأمل في تغيير أوضاعهم، وما يبرز هو شعورهم الدائم بالإحباط والعجز عن تحسين حياتهم المعيشية، ما يعزز من دائرة الفقر (رشوان، 2007).
- **إعادة إنتاج الفقر عبر الأجيال** :يفترض لويس أن ثقافة الفقر ليست مجرد حالة فردية مؤقتة، بل هي نمط حياتي يورث عبر الأجيال، حيث يشير إلى أن الأطفال يتعلمون منذ الصغر قيمًا وسلوكيات متعلقة بالتكيف مع البطالة وغياب الأمل في التغيير، مما يعزز من استمرارية الفقر عبر الأجيال (قيرة وديلمي، 2003).
- **العيش في بيئات سكنية هامشية** :يعكس لويس كيف أن الأحياء الفقيرة تتميز بمستوى متدنٍ من الخدمات الأساسية، مثل المياه النظيفة والرعاية الصحية، وتتميز هذه المناطق بازدحام سكاني، وتدهور في البنية التحتية، مما يعزز من حالة الإقصاء الاجتماعي والاقتصادي .

انتشار أنماط السلوك المنحرف :يشير لويس إلى أن ثقافة الفقر ترتبط ارتباطا وثيقا بتفشي مظاهر الانحراف والجريمة، حيث يغيب الاستقرار الاجتماعي، ما يفضي إلى انتشار العنف، وتعاطي المخدرات، والتسرب المدرسي (قيرة وديلمي، 2003).

8. نقد نظرية أوسكار لويس

رغم القيمة العلمية لنظرية "ثقافة الفقر" التي قدمها لويس، فإنها تعرضت لعدد من الانتقادات التي تستحق التأمل، أولا، من حيث المنهجية، تعرض لويس للنقد بسبب

إغفاله للبنية الاقتصادية والسياسية التي تسهم في إنتاج الفقر، فقد ركز على العوامل الثقافية والسلوكية بينما تجاهل الهياكل الاقتصادية والسياسية التي تساهم في تأبيد هذه الحالة (رشوان، 2007)، ثانيا، وجهت له انتقادات بسبب ما اعتبره البعض تحيزا ثقافيا في تفسيره للفقر، حيث اعتبرت نظريته إدانة ثقافية للفقراء بوصفهم مسؤولين عن أوضاعهم، متجاهلا العوامل الهيكلية مثل التمييز الاجتماعي، واللامساواة الاقتصادية (قيرة وديلمي، 2003).

أخيرا، اتهم لويس بالتركيز المبالغ فيه على فكرة استمرارية ثقافة الفقر عبر الأجيال، في حين أن العديد من الدراسات الحديثة قد أظهرت أن هناك فرصا للخروج من دائرة الفقر إذا توفرت السياسات الاقتصادية والاجتماعية المناسبة (الجوهري وشكري، 1913).

خلاصة:

رغم الانتقادات التي تعرضت لها نظرية "ثقافة الفقر" عند لويس، فإن إسهاماته تظل حجر الزاوية لفهم الفقر في السياقات الاجتماعية المختلفة، لقد قدم لويس فهماً عميقا لكيفية تأثير الفقر على الأفراد من خلال إنشاء ثقافة معينة، وهي الثقافة التي تتشكل عبر ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، وتكمن أهمية هذه النظرية في أنها تفتح أفقا لفهم الفقر كظاهرة اجتماعية لا يمكن تفسيرها فقط بالاقتصاد، بل تتشابك فيها عناصر ثقافية وسلوكية تستمر عبر الأجيال.

9. نتائج دراسة "ثقافة الفقر"

إن دراسة "ثقافة الفقر" التي قدمها أوسكار لويس تعد واحدة من أعمق الدراسات التي تم تناولها في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث تطرقت إلى فهم الأبعاد السلوكية، الاجتماعية والنفسية المرتبطة بالفقر داخل المجتمعات المهمشة، حيث أسفرت هذه الدراسة عن مجموعة من النتائج الجوهرية التي قدمت تفسيرا مركبا لكيفية تشكّل ثقافة فرعية ناجمة عن الفقر، ما يساهم في استمرار هذه الحالة عبر

الأجيال، إذ تتيح هذه النتائج فهمًا أوسع عن فاعلية ثقافة الفقر باعتبارها أكثر من مجرد حالة اقتصادية، بل نمط حياتي يمتد عبر الأجيال.

أ. الطفولة والتنشئة الاجتماعية في بيئة الفقر

أوضح لويس من خلال نتائج دراسته الميدانية أن الأطفال الذين ينشأون في بيئات فقيرة يتشبعون بقيم وسلوكيات ترتبط ارتباطا وثيقا بظروفهم المعيشية، وهي تشكل جزءًا أساسيًا من هويتهم الفردية والجماعية، حيث يعتبر الفقر بيئة غير داعمة للطفولة من حيث الرعاية الصحية والتعليمية، وهو ما يضعف فرص الأطفال في التقدم والاندماج داخل مجتمعاتهم (معن خليل، 1997)، هذا التشكيل الاجتماعي يتسم بعزل اجتماعي يؤدي إلى استمرار عجز الأطفال في تحقيق الطموحات المستقبلية، ما يساهم بدوره في إعادة إنتاج الفقر من جيل لآخر.(Hernandez, 2008)

ب. دور المرأة في الأسرة الفقيرة

تتميز الأسر الفقيرة بنمط توزيع الأدوار الذي يضع المرأة في مركز الأسرة كمعيل رئيسي، بينما يتراجع دور الرجل إلى هامشية بسبب قلة فرص العمل والفقر المستشري، ويشير لويس إلى أن هذه الديناميكيات تشكل استراتيجيات تكيفية للأسرة لمواجهة التحديات الاقتصادية القاسية(Lewis, 1998)، إن عبء الأسرة يعكس واقعا اجتماعيا غير متوازن، حيث تتعرض المرأة إلى أعباء متعددة سواء اقتصادية أو اجتماعية، ما يزيد من تأزم الحالة النفسية والاجتماعية داخل الأسرة الفقيرة.(Tripp, 2001)

ج. الخصائص الاقتصادية والاجتماعية للأسر الفقيرة

من خلال نتائج الدراسة، أكد لويس أن الأسر الفقيرة تواجه تحديات اقتصادية معقدة مثل ضعف الدخل، وارتفاع معدلات البطالة، وانعدام الأمان الاقتصادي، وهذه الظروف تؤدي إلى توترات نفسية واجتماعية كبيرة، مثل النزاعات الأسرية والشعور باليأس، مما يعزز ضعف الروابط الاجتماعية والاقتصادية (رشوان، 2007) لا تقتصر

هذه الظروف على القضايا الاقتصادية فقط، بل تشمل أيضا غياب المدخرات المالية التي تعمق أزمة الفقر من خلال اللجوء إلى الاقتراض بشكل مستمر، إن هذا الوضع يعكس الأبعاد الهيكلية للفقر ويبرز العلاقة بين السلوكيات الاجتماعية والواقع الاقتصادي المحيط.(Bourdieu, 2000)

د. السمات الديموغرافية والصحية

أظهرت نتائج دراسة لويس أيضًا أن الأسر الفقيرة تواجه معدلات عالية من الوفيات وضعف متوسط العمر المتوقع نتيجة لضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية، خاصة بين الأطفال، وهذه العوامل الصحية المتدنية تساهم في الحفاظ على دورة الفقر والحرمان عبر الأجيال، مما يزيد من تعقيد الوضع الاجتماعي لهذه الأسر (الجوهري وشكري، 1993)، وتؤكد هذه النتائج على العلاقة الوثيقة بين الفقر والصحة، مما يبرز ضرورة تكثيف الجهود لتحسين الوضع الصحي للأفراد في هذه البيئات لضمان قدرة الأجيال القادمة على كسر دائرة الفقر.(Smith, 2010)

هـ. ضعف المشاركة الاجتماعية والسياسية

أحد المظاهر الهامة التي أكدها لويس هو غياب الوعي الطبقي والمشاركة السياسية والاجتماعية للأفراد الذين يعيشون في ثقافة الفقر، إن العزلة التي يعاني منها هؤلاء الأفراد لا تقتصر على الحضور الاجتماعي، بل تمتد لتشمل غيابهم عن النشاطات السياسية والفكرية التي يمكن أن تشكل منصة للمطالبة بحقوقهم (إسماعيل وديلمي، 2003)، إن عدم الوعي الطبقي يعمق شعور الفقراء بالعجز، مما يحول دون قدرتهم على المساهمة الفعّالة في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

و. العنف والتفكك الأسري

من أبرز النتائج التي توصل إليها لويس هو انتشار العنف داخل الأسر الفقيرة وارتفاع معدلات الطلاق أو التفكك الأسري، حيث تلعب المرأة دور المعيل الوحيد في كثير

من الأحيان، مما يزيد من الضغوط عليها، وهذا يؤدي إلى غياب الاستقرار الأسري وظهور مشكلات نفسية مستمرة لدى الأطفال والبالغين على حد سواء(Lewis, 1998) وتظهر هذه النتائج الحاجة الماسة للتدخلات الاجتماعية التي تهدف إلى إعادة تنظيم الأدوار الأسرية في البيئات الفقيرة، وتشجيع أنماط تفاعلية تساهم في تعزيز الدعم الاجتماعي داخل الأسرة.

ز. الاستراتيجيات التكيفية للأسر الفقيرة

تشير دراسة لويس إلى أن الأسر الفقيرة تتبنى استراتيجيات تكيفية للتعامل مع الأزمات الاقتصادية، مثل الاقتراض، الرهن، وشراء كميات صغيرة من الطعام، وهذه الأنماط السلوكية لا تساعد فقط في البقاء على قيد الحياة، بل تعزز من استمرارية الفقر وتكرار الممارسات السلبية التي تحول دون الخروج من هذه الدائرة المغلقة (معن خليل، 1997)، إن هذه الاستراتيجيات تؤكد أهمية توفير فرص حقيقية لتحسين مستوى المعيشة في المجتمعات الفقيرة، وليس فقط تقديم مساعدات مؤقتة.

10. ثقافة الفقر كإطار تفسيري

من خلال نتائج دراسته، أكد لويس أن ثقافة الفقر ليست مجرد حالة اقتصادية، بل هي نمط حياتي متكامل يعكس استجابة الأفراد لظروفهم الموضوعية في مجتمع طبقي رأسمالي، ويربط لويس بين الفقر وثقافة فرعية تتسم بتكرار السلوكيات التي تؤدي إلى استمراره عبر الأجيال، ويعتبر أن هذا الوضع معقد ويحتاج إلى حلول مستدامة تستهدف إعادة هيكلة البيئة الاجتماعية والاقتصادية في هذه المجتمعات(Lewis, 1998)

خاتمة:

تتجلى أهمية نتائج دراسة لويس حول "ثقافة الفقر" في تقديم تفسير متكامل لظاهرة الفقر لا يقتصر على الأبعاد الاقتصادية فحسب، بل يمتد ليشمل الأبعاد الاجتماعية، الثقافية والنفسية، من خلال فحص الأنماط السلوكية وخصائص الأسر

الفقيرة، يساهم لويس في إثراء النقاش حول كيفية فهم استمرارية الفقر وتقديم حلول قابلة للتطبيق لتحطيم دائرة الفقر.

القسم الرابع: دراسة "اختيار الشعب" لبول لازارسفيلد

في سياق التحولات الكبرى التي شهدتها الدراسات السوسيولوجية حول تأثير وسائل الإعلام في تشكيل الرأي العام، تمسك العديد من المفكرين بعقيدة التأثير المباشر لوسائل الإعلام على سلوك الأفراد، خاصة في المجال السياسي، وهذه الرؤية التي تميزت بنظرة خطية وسطحية تجاه التأثير الإعلامي، تراوحت بين الاعتقاد بقدرة وسائل الإعلام على تغيير آرائنا إلى قناعات راسخة، غير أن "جوديت لازار" (1991) تلفت النظر إلى أن تطور الصحافة في المجتمعات القوية سياسيا مثل فرنسا وبريطانيا كان أقل سرعة مقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية، التي شهدت تحولا بارزا في هذا المجال بسبب ضعف السلطة المركزية فيها، مما أتاح حرية أكبر للإعلام (Lazar, 1991,

في هذا السياق، برز بول لازارسفيلد، الذي يعتبر أحد الأقطاب السوسيولوجية الذين غيروا مجرى فهمنا لتأثير وسائل الإعلام على الجمهور، ومن خلال دراسته الشهيرة "اختيار الشعب" في الأربعينيات من القرن العشرين، قدم لازارسفيلد رؤية مغايرة لمفهوم تأثير وسائل الإعلام على الرأي العام، حيث كشف عن دور أكثر تعقيدا وتأثيرا للعلاقات الاجتماعية والشخصية في تشكيل المواقف السياسية.

1. مدخل عام لدراسة "بول لازارسفيلد"

من خلال مناهج البحث السوسيولوجي الحديثة، يتضح لنا أن التحولات في الهيكل الاجتماعي والثقافي، خصوصًا تلك المرتبطة بتوسيع الطبقة الوسطى في المجتمعات الغربية في مرحلة ما بعد الثورة الصناعية، كانت المحرك الرئيسي لتطور وسائل الإعلام، ففي تلك الفترة، كان الراديو يعتبر أداة رئيسية للتواصل، واعتُبر من قبل بول لازارسفيلد وسيلة مثالية للوصول إلى شرائح واسعة من المجتمع، بما فيها فئات قد تكون بعيدة عن النخب المثقفة مثل كبار السن أو الأطفال أو حتى الأميين.

كما يوضح لازارسفيلد أن تأثير الراديو يتجاوز مجرد نقل المعلومات؛ فالأدوات الصوتية والموسيقية المصاحبة للرسائل تزيد من تأثيرها العاطفي على المستمعين، مما يجعلها أكثر فاعلية من الاتصال الشخصي المباشر (رشتي، 1971)، ولقد طرحت هذه الفكرة تساؤلات جادة حول مدى قدرة الوسائط الإعلامية على تعزيز الشعور بالمشاركة والاندماج الاجتماعي، في وقت كانت فيه وسائل الإعلام تستخدم كأداة لتوجيه السلوك الجماهيري.

الرأي العام في مفهوم لازارسفيلد لا ينظر إليه كمجرد استجابة ميكانيكية لرسائل الإعلام، بل هو تفاعل معقد يتشكل عبر عملية ديناميكية تجمع الأفراد والمجموعات، بما في ذلك تأثيرات البيئات الاجتماعية والعلاقات الشخصية في تحديد مواقف الناس وتوجهاتهم. هذا التحليل السوسيولوجي، الذي كشف عن دور العلاقات الاجتماعية في تشكيل الرأي العام، يكشف عن الطابع التفاعلي والديناميكي في عمليات الاتصال الجماهيري (سعد، 1975).

2. نظرية انتقال المعلومات على مرحلتين

إحدى أهم الإسهامات التي قدمها بول لازارسفيلد في هذا السياق هي "نظرية انتقال المعلومات على مرحلتين" والتي تبين كيف أن التأثير الإعلامي لا يصل مباشرة إلى الجمهور، بل يمر أولا عبر قادة الرأي الاجتماعي، هذه النظرية لا تقتصر على علاقة الوسائط الإعلامية بالجمهور، بل تشمل عملية معقدة تمر من خلالها الرسائل الإعلامية عبر شخصيات نافذة تتمتع بمصداقية وتأثير في مجتمعاتها المحلية، وهذا التحليل يعكس رؤية أعمق للعلاقات الاجتماعية التي تتشكل حول الإعلام وتسلط الضوء على الدور الذي يلعبه هؤلاء "القادة" في إعادة إنتاج الرسائل الإعلامية، مما يعزز من فعالية هذه الرسائل بين الجماهير (رشتي، 1971).

لقد أثبتت هذه النظرية صحة الفرضيات السوسيولوجية التي ترى أن وسائل الإعلام لا تمتلك التأثير الخطي والواحد كما كان يعتقد في بداية القرن العشرين، بل

يُنظر إليها الآن كجزء من شبكة تفاعلية معقدة تشمل الإعلام، قادة الرأي، والجماهير، مما يفتح مجالا أوسع لفهم ديناميكيات التأثير الإعلامي في المجتمعات المعاصرة.

3. دراسة "اختيار الشعب"

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 1940، كانت نتائج التصويت بمثابة تحد كبير للفرضيات السابقة حول تأثير وسائل الإعلام في سلوك الناخبين، ورغم الحملة الإعلامية الشديدة ضد الرئيس فرانكلين روزفلت، التي شنتها وسائل الإعلام الكبرى، إلا أن روزفلت استطاع تحقيق فوز تاريخي في الانتخابات، مما أثار تساؤلات هامة حول القوة الفعلية للإعلام في تغيير نتائج الانتخابات.

دراسة "اختيار الشعب "التي أجراها بول لازارسفيلد في هذه الفترة، أظهرت أن التأثير الإعلامي لا يتحقق عبر تأثير مباشر على الجمهور، بل عبر "وسطاء اجتماعيين" (قادة الرأي) الذين يلعبون دورا أساسيا في التأثير على قرارات الآخرين (المزاهرة، 2012)، وكما تم توضيحه في دراسة "مقاطعة إيري"، قام لازارسفيلد بجمع بيانات من عينة ممثلة للناخبين، حيث تم تحديد تأثير وسائل الإعلام على عملية اتخاذ القرار الانتخابي عبر مقابلات مستمرة مع عينة من الناخبين.

وخلصت نتائج هذه الدراسة إلى أن معظم الناخبين لم يتأثروا بشكل مباشر بالرسائل الإعلامية، بل كان تأثير قادة الرأي المحليين - ممن لديهم مكانة اجتماعية - هو العامل الأكثر أهمية في تشكيل رأيهم واتجاهاتهم الانتخابية (حسن، 1971،)، وبذلك، فإن "اختيار الشعب" يعتبر تجسيدا حقيقيا لفكرة التفاعلات الاجتماعية التي تتوسط تأثير الإعلام على السلوك الجماهيري، مما يعزز من الفهم السوسيولوجي للظاهرة الإعلامية.

5. منهجية البحث:

تم جمع البيانات عبر زيارات ميدانية لمجموعة ممثلة من الناخبين، تم تقسيمهم إلى فئات مختلفة حسب العمر والمستوى التعليمي، وتضمن البحث مقابلات ميدانية شهرية استمرت من مايو إلى نوفمبر 1940، بهدف قياس التغيرات في اتجاهات الناخبين.

6. التحليل السوسيولوجي:

تمثل دراسة بول لازارسفيلد تحوّلا مهما في فهم تأثير الإعلام، حيث يجسد تحليله المفاهيم السوسيولوجية المتعلقة بالسلطة والهيمنة من خلال نقل المعلومات، ويبرز البحث بشكل نقدي طبيعة العلاقات الاجتماعية المعقدة التي تلعب دورا حاسما في تشكيل الرأي العام، مما يعكس تحولا من الفكرة التقليدية حول التأثير المباشر إلى الفهم الأكثر ديناميكية حيث يتم تداخل الإعلام مع البنى الاجتماعية القائمة.

7. نتائج الدراسة:

تشير نتائج دراسة "اختيار الشعب" إلى أن عملية اتخاذ القرار الانتخابي ليست محكومة بعوامل فردية فحسب، بل هي نتيجة تفاعل معقد بين مجموعة من العوامل الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية، وقد تمكن الباحثون من تحديد ثلاث خصائص أساسية تؤثر بشكل مباشر في توجهات الناخبين، وهي :المكانة الاجتماعية والاقتصادية، الانتماء الديني، وطبيعة الإقامة (ريفية أو حضرية)، ومن خلال تحليل هذه العوامل، أظهرت الدراسة أن الناخبين ذوي المكانة الاجتماعية المرتفعة، المنتمين للديانة البروتستانتية، والذين يعيشون في المناطق الريفية، يميلون إلى دعم المرشح الجمهوري، بينما يفضل الناخبون من ذوي المكانة الاجتماعية المنخفضة، المنتمون إلى الديانة الكاثوليكية، وسكان المناطق الحضرية، تأييد المرشح الديمقراطي، وهذا التقسيم يعكس عمق التأثيرات الاجتماعية والتاريخية على السلوك الانتخابي، ويستدعي مناقشة العلاقة المتشابكة بين الهوية الاجتماعية والقرار السياسي (مكاوي والسيد، 2006).

من جهة أخرى، أظهرت الدراسة أن السلوك الانتخابي يتأثر أيضا بالتاريخ السياسي للناخب، حيث يمكن ملاحظة أن الناخبين، الذين اختاروا مرشحين معينين في انتخابات سابقة، يميلون إلى التصويت بنفس الطريقة في الانتخابات اللاحقة، وهذا الأمر يفتح المجال للتحليل السوسيولوجي حول كيفية انتقال القيم السياسية عبر الأجيال وتأثيرها على تشكل الهويات الحزبية، وهو ما يوضح كيف أن الجماعات السياسية تتكامل في تشكيل وتوجيه السلوك الانتخابي (مكاوي والسيد، 2006).

بالإضافة إلى ذلك، تؤكد النتائج على أن تكوين الرأي الانتخابي ليس مجرد عملية فردية، بل هو نتيجة تفاعلات اجتماعية جماعية، حيث يعيش الأفراد ضمن سياقات اجتماعية متقاربة تشمل مصالح واحتياجات مشتركة، وهذا التأثير الجماعي على الرأي الانتخابي يتضح بشكل خاص عندما نلاحظ أن الاتصال الشخصي يتفوق على وسائل الإعلام الجماهيري في تشكيل التوجهات السياسية، وهو اكتشاف يسلط الضوء على دور الروابط الاجتماعية المباشرة في التأثير على الأفراد (بصلي وحمدي، 2017).

أحد الاكتشافات البارزة في هذه الدراسة هو دور قادة الرأي، وهؤلاء الأفراد، الذين يتصلون بشكل أكبر بوسائل الإعلام مثل الصحف والمجلات، يعملون كوسائط بين وسائل الإعلام والجمهور الأوسع، وهذا يطرح تساؤلات حول كيفية تأثير هؤلاء القادة في تشكيل الرأي العام من خلال ما ينقلونه من معلومات، وهو ما يعيد التأكيد على فكرة أن وسائل الإعلام ليست المصدر الوحيد للمعرفة السياسية، بل يمر محتواها عبر وسطاء اجتماعيين يسهمون في تشكيل الوجهة السياسية للأفراد (بصلي وحمدي، 2017).

وقد أفضت هذه النتائج إلى تطوير ما يعرف بـ "نظرية تدفق المعلومات على مرحلتين"، التي تنص على أن المعلومات تنتقل أولا من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي، ثم من هؤلاء القادة إلى باقي أفراد المجتمع، وهذا النموذج يؤكد أن المجتمع ليس كتلة متجانسة بل هو شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تساهم في تشكيل التوجهات السياسية، مما يدحض فكرة "الطلقة السحرية" التي كانت تفترض في السابق حول تأثير

وسائل الإعلام المباشر والسريع (رشتي، 1992)، وهذه النتائج تسلط الضوء على أهمية الروابط الاجتماعية في تفسير السلوك الانتخابي بشكل أعمق وأكثر دقة.

في هذا السياق، أجرى كل من "إلياهو كاتر" و"بول لازارسفيلد" دراسة في عام 1955 حول تأثير الاتصال الشخصي مقارنة بوسائل الإعلام على قرارات الأفراد في مجالات مختلفة مثل التسويق، الأزياء، والشؤون العامة، أظهرت النتائج أن الاتصال الشخصي يتفوق بشكل واضح على وسائل الإعلام في تشكيل الرأي العام، وهو ما يعزز مفهوم التأثير الاجتماعي غير المباشر الذي يمارسه الأفراد الأكثر اطلاعا في المجتمع (رشتي، 1992).

بناءا على ذلك، يقدم الباحثون نموذجا يتضمن مرحلتين لنقل المعلومات: الأولى من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي، والثانية من هؤلاء القادة إلى بقية أفراد المجتمع الذين يعتمدون على هؤلاء القادة في الحصول على المعلومات، وهذا النموذج يعزز الفهم بأن السلوك الانتخابي يتم تشكيله ليس فقط من خلال الإعلام المباشر، بل من خلال الشبكات الاجتماعية المعقدة التي تساهم في تحديد مواقف الأفراد، وهذا، بدوره، يفتح المجال لمزيد من الدراسات حول الدور التفاعلي لوسائل الإعلام في تشكيل الانتماءات الحزبية (دليو، 2010).

التحليل النقدي :هذه الدراسة توفر مدخلا مهما لفهم آلية تأثير العوامل الاجتماعية على سلوكيات الناخبين، لكن من الأهمية بمكان أن نشير إلى التحديات المنهجية التي قد تطرأ نتيجة لقياس بعض هذه العوامل بشكل تقريبي، الأمر الذي يفتح المجال لمزيد من الدراسات التي يمكن أن تعتمد مقاييس أكثر دقة في قياس المكانة الاجتماعية والاقتصادية والانتماء الديني.

القسم الخامس: دراسة الجندي الأمريكي "صمويل ستوفروآخرون"

في أعقاب الهجوم الياباني على القاعدة العسكرية الأمريكية في بيرل هاربور عام 1941، تم إنشاء فرع للبحوث الاجتماعية تحت إشراف الجنرال فريديريك أوسبورن،

رجل الأعمال وعالم الاجتماع الذي تولى رئاسة هذا الفرع، وكان من ضمن مهامه الأساسية جمع وتحليل البيانات التي تتعلق بالمشكلات الاجتماعية والنفسية التي ظهرت بين الجنود الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث تولى عالم الاجتماع صمويل ستوفر دورا رئيسيا في إدارة هذا الفرع، مما أسهم في تطبيق أدوات "الهندسة الاجتماعية" لفهم تأثير الحرب على الجنود.(Stouffer, 1949)

لقد عُرف هذا الفرع بتركيزه على تحليل المشكلات التي يواجهها الجنود، سواء كانت تتعلق بالصحة البدنية مثل قضايا استخدام الأدوية، أو بجوانب أخرى كالتفاعل الاجتماعي، وتفضيلات الجنود فيما يتعلق بالراحة والتكتيك العسكري، كما تم تحليل توجهات الجنود الاجتماعية والسياسية خلال فترة الحرب، بما في ذلك آراء الجنود تجاه الأقليات والآخرين في مسارح العمليات المختلفة.

1. مدخل عام لدراسة الجندي الأمريكي

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تم تنفيذ مشروع بحثي مكثف تحت إشراف ستوفر، الذي استمر لسنوات عدة بعد الحرب، وكان الهدف من هذا البحث هو تقديم صورة شاملة عن تجربة الجندي الأمريكي في الحرب، حيث أُجريت مقابلات مع أكثر من 111 ألف جندي أمريكي باستخدام 211 استبيانا مختلفا، وكان المشروع مدعومًا من مؤسسة كارنيجي، وهذه الدراسة لم تستفد منها بالكامل في البداية، إلا أنها مهدت الطريق لمجموعة من المجلدات المهمة التي تناولت جوانب مختلفة من الحياة العسكرية (Stouffer, 1949).

وقد تم نشر نتائج هذا المشروع في أربعة مجلدات تحت عنوان "دراسات في علم النفس الاجتماعي في الحرب العالمية الثانية"، حيث اختص المجلدان الأولان منهما بالتركيز على تجربة "الجندي الأمريكي" مباشرة، وأبرزت هذه الدراسات العلاقة بين الروح المعنوية والتفاعلات الاجتماعية بين الجنود، بالإضافة إلى التحديات النفسية التي واجهوها في مواجهة الواقع العسكري مقارنة بالقيم المثالية التي روج لها الجيش.

2. مضمون المجلدات الأربعة:

المجلد الأول :تناول التكيف الشخصي للجنود في ظل البيئة العسكرية، وركز على الجنود الذين تم استدعاؤهم للخدمة العسكرية مؤقتا أثناء الحرب. كما تم تحليل التأثيرات النفسية لتجربة الجندي في وقت الحرب.

المجلد الثاني :تناول قضايا الحرب نفسها، مثل التوترات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي واجهها الجنود خلال فترة خدمتهم.

المجلد الثالث :تناول تأثير الأفلام الدعائية والمواد التوجيهية على الجنود، ومدى فعاليتها في توجيه وإقناع الجنود بمواقف معينة.

المجلد الرابع :تضمن تحليلا لنظريات قياس الاتجاهات وطرق تطبيقاتها باستخدام تحليل البيانات الإحصائية، وهي تتضمن الأساليب المتقدمة مثل تحليل المقاييس وتحليل البناء الكامن.(Stouffer, 1949)

3. فرع البحوث والهندسة الاجتماعية في الإدارة العسكرية

كان الهدف الأساسي من تأسيس فرع البحوث في الجيش الأمريكي هو استخدام أبحاثه كأداة "هندسية اجتماعية" لتوجيه المواقف والآراء داخل القوات المسلحة، واستخدم الباحثون هذه الأدوات لتحليل وتعديل سلوك الجنود لضمان تماسك الجيش وكفاءته، وعلى سبيل المثال، كان ينظر إلى أي خلل في الإدارة العسكرية من زاوية معنوية ونفسية، وكان يتطلب علاجا سريعا للحفاظ على الروح المعنوية للجنود (Stouffer, 1949).

4. دور الهندسة الاجتماعية في تغيير الثقافة العسكرية

لقد سمح دور فرع البحوث العسكري بإجراء دراسات معمقة حول كيفية تأثير الثقافة العسكرية على حياة الجنود وكيفية تفاعلهم مع القيم العسكرية، وقد اهتمت

الأبحاث بفحص سلوك الجنود عند تعرضهم لضغوط معينة، مثل اختلافات في الرتب والمكانة، وكيف أن هذا ينعكس على علاقتهم مع زملائهم وضباطهم، وتظهر البيانات أن هناك فجوة كبيرة بين القيم المثلى التي يتم تعليم الجنود الدفاع عنها وبين الواقع اليومي الذي يعيشونه، وقد أظهرت الدراسة أن الجنود بداوا يشككون في مشروعية الحرب في وقت مبكر من عام 1943، مما يعكس الأزمة النفسية التي كان يعاني منها جزء كبير من الجنود.

5. الانتقادات والملاحظات على "الجندي الأمريكي"

رغم الأهمية التي تمثلها دراسة "الجندي الأمريكي"، وجهت بعض الانتقادات إلى الباحثين القائمين على هذه الدراسة، لعدم استثمارهم الكافي لهذه البيانات في تطوير برامج إصلاح حقيقية داخل الجيش، وعلى الرغم من تحليل البيانات الواسع، إلا أن النتائج لم تترجم إلى خطوات عملية للتغيير الفعلي في البنية العسكرية، مما يجعل تلك الدراسة أقل فعالية في التأثير على السياسات العسكرية على المدى الطويل (Stouffer, 1949).

القسم السادس: إسهامات إرفينغ غوفمان

يعد إرفينغ غوفمان من أبرز روّاد علم الاجتماع الجزئي، وهو المفهوم الذي استخدمه لوصف التفاعل الاجتماعي وتأثيره العميق على بناء الذات، وعلى الرغم من تصنيفه كشخصية محورية في تقاليد التفاعلية الرمزية، كان غوفمان يفضل أن يعرف نفسه كمراقب دقيق للحياة اليومية ومتخصص في تحليل القيم الإنسانية، حيث عُرف بشغفه في دراسة التفاصيل الدقيقة للطقوس الاجتماعية وأثرها على تشكيل الأفراد داخل المجتمع (أرمان وميشال ماتيلار، 2005).

يرى غوفمان أن الفاعل الاجتماعي يعاين وينقل باستمرار معلومات عن الآخرين، موضحا أن المجتمع يتطلب من الأفراد تزويد الآخرين بمعلومات عنهم، مما يعكس تفاعلا اجتماعيا معقدا بين الأفراد والجماعات، وهو يصف هذه العملية بقوله: "عندما يوضع

الفرد في حضور أشخاص آخرين، يسعى هؤلاء الأفراد إلى الحصول على معلومات تخصّه أو يزوّدونه بمعلومات متعلقة بهم" (أرمان وميشال ماتيلار، 2005،)، وهكذا، يبرز غوفمان أهمية القواعد المنظمة لطقوس التفاعل، التي تجعل السلوك الإنساني جزءا لا يتجزأ من بنية المحيط الاجتماعي، وهو ما يعكس تفاعل الأفراد داخل سياق اجتماعي يتشكل باستمرار.

اعتمد غوفمان في دراساته على تشبيه الحياة الاجتماعية بالمسرح، وهو تصور تجسد في ما أسماه "المدخل المسرحي" أو "وجهة النظر الدرامية"، حيث يعتبر أن الأفراد يؤدون أدوارا محددة في مواقف الحياة اليومية أمام جمهور غير دائم (طلعت إبراهيم وآخرون، 2010)، وهذا التصور الذي قدمه في كتابه "تقديم الذات في الحياة اليومية" يركّز على كيفية تقديم الأفراد لأنفسهم للآخرين والأساليب التي يستخدمونها لضبط الانطباعات التي تتكون عنهم. وبالتالي، يرى غوفمان أن الأفراد يمارسون أدوارا متعددة تشبه ما يقوم به الممثلون على خشبة المسرح، باستخدام وسائل مثل اللغة، والسلوك، والملابس لإظهار أفضل صورة عن أنفسهم خلال التفاعل مع الآخرين (طلعت إبراهيم وآخرون، 2010).

1. إدارة الانطباع:

يشكل النجاح في إدارة الانطباعات عنصرا أساسيا في أداء الأدوار الاجتماعية، ويميز غوفمان بين الانطباعات المقصودة وغير المقصودة، ويؤكد أن البيئة التي يقدم فيها الأداء تلعب دورا كبيرا في تشكيل هذه الانطباعات. ويقسّم غوفمان هذه البيئة إلى قسمين رئيسيين يعكسان مجالات المسرح:

- **منطقة الخشبة الأمامية** :تمثل هذا الجزء من الحياة الاجتماعية المكان الذي يعرض فيه الأفراد هويتهم العامة أمام الجمهور، ويشمل هذا المكان عناصر ثابتة مثل الموقع، والديكور، والملابس، وتعبيرات الوجه (رضوان بوجمعة، 2010).

- **منطقة الخشبة الخلفية :**هي المساحة التي يبتعد فيها الأفراد عن أدوارهم العامة، حيث يمارسون سلوكياتهم الخاصة بعيدا عن الأنظار، مثل غرف النوم أو الحمام (جوت سكوت، 2009).

يشير غوفمان إلى أن الانتقال بين هاتين المنطقتين قد يكون مرهقا، خاصة بالنسبة للأشخاص الخجولين، لأن هذا الانتقال يتطلب تغيّرات في طريقة تقديم الذات وفحصها بشكل دقيق من قبل الآخرين (جوت سكوت، 2009).

2. التواصل كمنظومة اجتماعية:

يعتبر التفاعل وجهاً لوجه من المفاهيم المركزية في أعمال غوفمان، حيث يرى أن التواصل اليومي يتشكل من خلال طقوس وعادات تشبه الأداء المسرحي، ويشير إلى أن أي لقاء اجتماعي يتضمن ضمنيًا شكلا من أشكال الاتصال، حتى في غياب الكلمات، فعلى سبيل المثال، يعتبر الصمت ولغة الجسد أشكالا من التفاعل الاجتماعي التي لا يمكن تجنبها (رضوان بوجمعة، 2010).

اعتمد غوفمان في منهجه على "الملاحظة بالمشاركة"، حيث يغمس الباحث في البيئة التي يدرسها ليعيش تجاربها ويحلل قواعدها الداخلية. في كتابه "المصحات النفسية"، قام غوفمان بالعيش في مستشفى نفسي لتحليل الحياة اليومية للمرضى، ليكتشف أن سلوكياتهم يمكن تفسيرها من خلال منظورين: الأول "طبي-نفسي" يرى سلوكهم كأعراض لعدم التكيف الاجتماعي، والثاني "اجتماعي" يرى أن هذه السلوكيات تعد تكيفًا عقلانيًا مع بيئة المستشفى وضغوطاتها (جوت سكوت، 2009).

3. العالم كمسرح

تقوم نظرية "العالم كمسرح" على فرضية أن الإنسان لا يدرك الحقيقة إلا من خلال الرموز، حيث ينظر إلى العالم الاجتماعي على أنه ليس نظامًا ذاتيا، وبناءا على هذه الرؤية، فإن المعاني التي يُمنحها السلوك الاجتماعي ليست موروثة بشكل ثابت، بل تبنى

من خلال التفاعل الاجتماعي المستمر، وفقا لغوفمان، يسعى الأفراد إلى تقديم صورة إيجابية عن أنفسهم، تتناسب مع أهدافهم وأدوارهم الاجتماعية، وهو ما يجسد فكرة "السلوك الاجتماعي كأداء درامي"، حيث يسعى الفرد دائما إلى بناء صورة محددة عن نفسه من خلال التفاعل مع الآخرين (عبد الرحمن عزي، 1995).

4. تطبيق نظرية غوفمان في المؤسسات الاجتماعية:

تعتبر نظرية غوفمان عن "إدارة الانطباع" أداة رئيسية لفهم كيفية تنظيم الأدوار داخل المؤسسات الاجتماعية، إذ يرى غوفمان أن هناك فاصلا بين "ما خلف العرض" حيث يتم التحضير للأداء بعيدا عن الأنظار، و"ما على خشبة المسرح" حيث يتم تقديم العرض أمام الجمهور، وهذه التفرقة بين الجوانب الخاصة والعامة تعتبر جوهرية لفهم التفاعلات الاجتماعية اليومية، حيث يشدد غوفمان على أن التفاعل الاجتماعي لا يتم فقط بالكلمات، بل يتضمن أيضًا إشارات غير لفظية تعكس قيم المجتمع والأفراد (كابان ودورتيه، 2007).

القسم السابع: دراسة "الغرباء" لهوارد بيكر

يرتكز تحليل هوارد بيكر في كتابه "الخارجون عن القواعد الاجتماعية (1963) " على تطوير الأسس الجوهرية لنظرية الوصم الاجتماعي، والتي تعتبر واحدة من أبرز الإسهامات في هذا المجال، وقد عارض بيكر في أعماله الفكرية العلماء الذين سبقوه في دراسة الانحراف، معتبرا أن مفهوم "الانحراف" ليس حقيقة ثابتة أو موضوعية، بل هو نتاج عملية اجتماعية تتضمن تحديد القواعد السلوكية وفرض معايير الانحراف على الأفراد الذين يخالفون هذه المعايير (عزي، 2003)، ومن هنا، تسهم نظرية بيكر في فهم الانحراف ليس على أنه مخالفة للقوانين المجتمعية، بل كعملية يتم من خلالها بناء وتسمية الأفراد كـ "منحرفين."

1. نظرية الوصم الاجتماعي

ظهرت نظرية الوصم الاجتماعي (Labeling Theory) في ستينيات القرن العشرين، في فترة شهدت صراعات ثقافية وسياسية عميقة في الولايات المتحدة، ويرتبط المفهوم بشكل وثيق بالتفاعل الاجتماعي الرمزي، حيث يرى بيكر أن الجماعات الاجتماعية تخلق مفهوم الانحراف من خلال تحديد القواعد التي يلتزم بها الأفراد، والتعامل مع أولئك الذين يخرقون هذه القواعد بوصفهم منحرفين، وفي هذا السياق، يرفض بيكر اعتبار الانحراف صفة ثابتة في الأفعال ذاتها، مؤكدا أن الوصم الاجتماعي هو الذي يحدد ما إذا كان سلوك معين يعتبر منحرفا أم لا (عثمان، 1999).

وبناءا على ذلك، يعتقد بيكر أن الانحراف هو نتيجة تفاعل اجتماعي مستمر، حيث يتم تعريف الأفعال من قبل الآخرين باعتبارها منحرفة، ما يساهم في تفعيل أو استمرار هذه الأفعال في المجتمع، ففي رأيه، تصبح الهوية المنحرفة جزءا من بناء الفرد الاجتماعي عندما يوصم بالسلوك المنحرف من قبل المجتمع (عزي، 2003)، كما أكد بيكر أن الأفراد الذين يواجهون الوصم بالانحراف قد يتبنون هوية منحرفة، مما يعزز استمرار السلوك المنحرف حتى بعد التوقف عن ممارسته (أحمد السيد، 1997).

2. الانحراف الأولي والانحراف الثانوي

قدم بيكر تمييزا بين نوعين من الانحراف: الأول هو "الانحراف الأولي (Primary Deviance)" الذي يشير إلى الأفعال التي قد تعتبر منحرفة لكنها لا تؤثر على الهوية الذاتية للفرد، أما النوع الثاني، "الانحراف الثانوي(Secondary Deviance) "، فيحدث عندما يتم وصم الفرد رسميا أو اجتماعيا بالانحراف، ويبدأ في تبني هوية منحرفة استجابة لهذه الوصمة (جابر، 2003).

وأشار بيكر إلى أن الانحراف لا يمكن فهمه بمعزل عن العلاقات الاجتماعية والسياق الثقافي، فالوصم الاجتماعي ليس محايدا بل يتم تحديده بناءا على توزيع السلطة والنفوذ في المجتمع، وبالتالي، فإن الفئات ذات النفوذ الاجتماعي، مثل الطبقات

العليا أو المؤسسات الحكومية، هي التي تضع المعايير وتفرضها على الآخرين، مما يجعل الانحراف ظاهرة اجتماعية تتشكل من خلال تفاعلات غير متساوية بين الأفراد والمجموعات (جابر، 2003).

خاتمة:

من خلال تحليل بيكر لنظرية الوصم الاجتماعي، نرى أن الانحراف ليس سمة ثابتة أو موضوعية للأفعال نفسها، بل هو نتيجة عملية اجتماعية معقدة. هذه العملية تتضمن تفاعلا بين الأفراد والجماعات الاجتماعية، حيث تقوم هذه الجماعات بتحديد القواعد الاجتماعية وفرض الوصم على من يخرقونها، وتعتبر هذه النظرية إطارا مثمرا لفهم كيفية تشكيل الانحراف في السياقات الاجتماعية المختلفة، وتساعد في فهم تأثيرات هذه العمليات على هوية الفرد وسلوكه مستقبلاً.

3. دراسة هوارد بيكر

ولِد هوارد بيكر عام 1924 في الولايات المتحدة الأمريكية، وبدأ في إجراء دراساته السوسيولوجية في جامعة شيكاغو بين عامي 1950 و1989، ومن خلال دراساته، أرسى بيكر نظرية الوصم التي تهدف إلى فهم الانحراف كنتاج تفاعلي اجتماعي، تأثر بيكر بأساتذته في جامعة شيكاغو، وعلى رأسهم هربرت بلومر وإرنست بورغيسين، وقد شكلت أعماله في سوسيولوجيا العمل والسلوك المهني أساسًا لتطوير مفهوم الانحراف الاجتماعي (كابان وجوريه، 2010).

أحد أعماله الرائدة كان دراسته لسلوك عازفي موسيقى الجاز، حيث أظهر أن هؤلاء الموسيقيين لا ينظر إليهم فقط كمنحرفين بل كأفراد ينتمون إلى مجتمع هامشي نتيجة لوصمهم الاجتماعي، وقد امتدت دراساته لتشمل مواضيع أخرى في سوسيولوجيا المهن وعلم الجريمة، حيث كان يسعى دائما إلى فهم كيفية تشكيل الهوية المهنية والاجتماعية من خلال التفاعل مع المجتمع.(Becker, 1973)

4. الغرباء – دراسة في سوسيولوجيا الانحراف

في دراسة بيكر، يتعرض لمفهوم الانحراف من خلال التفاعل بين الفرد والمجتمع، حيث يرفض المقاربة التقليدية التي كانت تعتمد على البيانات الإحصائية من الشرطة والسجون، بدلا من ذلك، يرى بيكر أن الانحراف يجب أن يفهم كنتاج لعمليات تفاعلية تتضمن تفاعل الأفراد مع البيئة الاجتماعية التي تفرض معايير سلوكية معينة (Becker, 1973).

على سبيل المثال، في دراسته حول مدخني الماريوانا من بين موسيقيي الجاز، أظهر بيكر أن تعاطي القنب ليس نتيجة للاستعداد النفسي الفردي فحسب، بل هو سلوك اجتماعي يتشكل من خلال التفاعل مع الآخرين الذين يمارسون هذا السلوك (Becker, 1973)، وقد ركز بيكر في دراساته على فهم الانحراف كعملية ديناميكية تتطور من خلال مراحل مختلفة: من السلوك المنحرف البسيط إلى تبني الهوية المنحرفة، ثم الانتماء إلى جماعة منحرفة.

ويُظهر بيكر في تحليله للسلوك المنحرف كيف أن المجتمع يلعب دورا حاسما في تصنيف الأفراد على أنهم "منحرفين" بناءاعلى معايير اجتماعية وثقافية قد تكون غير موضوعية أو متغيرة، وقد تأثر بيكر بشكل كبير بأعمال إرفينغ غوفمان حول "الوصمة"، إذ يتقاطع فكر بيكر مع أفكار غوفمان حول تأثيرات الوصم على الأفراد والمجتمعات (كابان وجوريه، 2010).

5. التحليل السوسيولوجي لمجتمع النواصي

تمثل دراسة ويليام فوت وايت لمجتمع النواصي (Street Corner Society) لحظة فارقة في تطور علم الاجتماع الأمريكي، ليس فقط بسبب المنهج الميداني الذي اعتمده، بل لما قدمه من فهم عميق لديناميكيات السلطة والتفاعل الاجتماعي في بيئة حضرية متخلفة نسبيا، ولقد استطاع وايت أن يعري واقع الهامش الحضري ويكشف عن الآليات الدقيقة التي تحكم العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع يبدو في ظاهره مفككا، لكنه يملك

نسقا داخليا من القواعد غير الرسمية والتراتبية التي تضبط سلوك الأفراد (Whyte, 1943).

أ. دينامية الطبقات والسلطة

في تحليله للبنية الاجتماعية في كورنفيل، سلط وايت الضوء على التفاوت الطبقي من خلال تصنيف ثلاثي: "الصغار"، "الوسطاء"، و"الكبار"، وهذا التقسيم يعيد إنتاج الفكرة السوسيولوجية الجوهرية بأن السلطة ليست دائما محصورة في مؤسسات الدولة أو الفاعلين الرسميين، بل تنتقل وتعاد هيكلتها من خلال العلاقات غير الرسمية والشبكات المحلية (الجوهري، 2000)، الصغار، وهم الشباب الهامشيون، لا يمتلكون وسائل السيطرة الرسمية، لكنهم يشكلون أدوات طيعة في يد "الوسطاء"، وهم زعماء العصابات أو النخب الصاعدة الذين يتقنون التفاوض بين الطموح الفردي والواقع الاجتماعي، وهؤلاء بدورهم يتعاملون مع "الكبار"، وهم أصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي الذين يديرون اللعبة من الخلف. هذا النموذج يبرز تعدد مستويات السلطة، ويعيد تعريف "القيادة" من كونها سلطة رسمية إلى كونها نتاج تفاعلي معقد يعكس القدرة على الوساطة الاجتماعية.(Whyte, 1943)

ب. الاقتصاد غير الرسمي والبقاء الاجتماعي

من خلال توثيقه لظاهرة المقامرة المنظمة ونشاط "لعبة الأرقام"، قدم وايت وصفا دقيقا لشكل من أشكال الاقتصاد غير الرسمي الذي يخترق النسيج الاجتماعي المحلي، وهذا الاقتصاد لا يمثل فقط وسيلة للبقاء، بل يشكل بنية موازية للاقتصاد الرسمي، وينتج نوعا من "العدالة البديلة" والفرص التي لا يوفرها النظام الرسمي، وهذا التفاعل بين الاقتصاد غير الرسمي والسياسة المحلية يعزز من منطق "الزبونية الاجتماعية" الذي يشكل أساس التحالف بين الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين (الجوهري، 2001).

ج. رمزية المكان والهوية الجمعية

تكمن عبقرية وايت أيضا في كشفه عن العلاقة الرمزية بين المكان والهوية، و"الزاوية" أو "النواصي" ليست مجرد موقع جغرافي، بل فضاء اجتماعي تنتج فيه الهوية ويتشكل فيه الانتماء، حيث أن التفاعل اليومي في هذه الفضاءات يخلق نوعا من "الرأسمال الرمزي"، حيث تُقاس المكانة الاجتماعية بمدى قدرة الفرد على الاندماج في طقوس وتقاليد الجماعة(Whyte, 1943) ، فاللعب في نادي البولنج لم يكن مجرد ترفيه، بل مسرحا يوميا لاختبار التراتبية، وهنا تتجلى المفارقة السوسيولوجية التي رصدها وايت: المكانة الاجتماعية ليست نتيجة الأداء بل شرطا له، مما يعيدنا إلى نقد "المنطق الميريتوقراطي (Meritocracy) "الذي يفترض فيه أن الجدارة تسبق التقدير، بينما في الواقع الاجتماعي قد تكون النخبوية هي المحدد الأولي للنجاح.

د. السوسيولوجيا التفاعلية والانغماس في الو اقع

من الناحية المنهجية، يمثل انتقال وايت من "ملاحظ غير مشارك" إلى "مشارك غير ملاحظ" تطورا لافتا في علم الاجتماع التفاعلي، وهذا الانغماس العاطفي والمعرفي يظهر تراجع المسافة بين الباحث وموضوع الدراسة، ويعكس مفهوم "الانحياز الإيجابي" أو "التعاطف السوسيولوجي" الذي يشبه ما دعا إليه ماكس فيبر تحت مسمى "الفهم التفهمي(Weber, 1949) (Verstehen) "، وهنا تظهر جدلية التورط والحياد التي تميز البحث السوسيولوجي الميداني، حيث لا يكون الباحث مراقبا محايدا بل فاعلا متفاعلا يتأثر ويؤثر.

خلاصة:

استطاع ويليام فوت وايت، من خلال دراسته لمجتمع النواصي، أن ينتج معرفة سوسيولوجية لا تقتصر على الوصف، بل تتجاوز إلى تفسير التعقيد الاجتماعي في البيئات الهامشية، لقد قدم نموذجا تطبيقيا يحتذى به في البحث الميداني، مؤكدا أن فهم المجتمعات لا يتم من خلال الإحصاءات الباردة بل عبر الالتحام المباشر، والانصات

للغة الحياة اليومية، كما أن تحليله كشف عن أن الهامش ليس فراغا اجتماعيا، بل نظاما متكاملا من العلاقات والدلالات والرموز، وأن السلطة، في صيغتها غير الرسمية، قد تكون أكثر حضورا وتأثيرا من السلطة الرسمية نفسها.

6. التحليل المقارن بين مجتمع النواصي والمجتمعات الهامشية في العالم العربي

تكمن أهمية المقارنة بين "مجتمع النواصي" كما صوره ويليام فوت وايت، والمجتمعات الهامشية في العالم العربي، في إبراز ما هو مشترك من حيث المظاهر البنيوية والتفاعلية، وفي الوقت ذاته تحديد ما هو خاص من حيث السياقات الثقافية والسياسية. فالهامش ليس ظاهرة أمريكية أو غربية بحتة، بل هو جزء من التحول الحضري الذي تشهده المدن في كل أنحاء العالم، حيث تفرز ضواحي ومناطق تتسم بالتهميش الاجتماعي والاقتصادي، وتُنتج ديناميكياتها الخاصة من التنظيم والتفاعل.

أ. التشابه في البنية الاجتماعية والسيطرة غير الرسمية

كما في كورنفيل الأمريكية، نجد أن المجتمعات الهامشية العربية – كأحياء المدينة القديمة في القاهرة، أو أحياء باب الوادي في الجزائر العاصمة، أو أحياء سيدي مومن في الدار البيضاء – تتسم بوجود هياكل غير رسمية للقيادة، وفي هذه السياقات، تمارَس السلطة من خلال شبكات القرابة أو الزعامات التقليدية أو حتى "البلطجية" المحليين، الذين يلعبون دور الوسيط بين السكان والدولة أو بين السكان واقتصاد الظل (Bayat, 2010)، وكما أشار وايت إلى العلاقة التفاعلية بين "الصغار"، "الوسطاء"، و"الكبار"، فإن المجتمعات العربية الهامشية تظهر نفس البنية، ولكن بأسماء مختلفة: حيث يتحكم "الشّيخ" أو "الكبير" أو "زعيم الحومة" في علاقات النفوذ والتوزيع غير الرسمي للموارد، سواء أكانت فرص عمل مؤقتة، أو حماية من الأمن، أو توزيع المساعدات.

ب. الاقتصاد غير الرسمي والمقاومة اليومية

في كلتا الحالتين، يشكّل الاقتصاد غير الرسمي عنصرا بنيويا، إلا أن هذا الاقتصاد في السياق العربي يتخذ أحيانا طابعا أكثر تعقيدا بسبب تداخل الدين، العائلة، والسياسة. فمثلا، في كثير من الأحياء الشعبية في مصر، يعتمد الناس على "الجمعيات الأهلية" و"الجمعيات الخيرية الدينية" لتلبية احتياجاتهم الأساسية، ما يخلق نوعا من "الاعتمادية الاجتماعية" مقابل الولاء السياسي أو الديني(Ismail, 2006) ، في هذا السياق، تُستخدم مفاهيم مثل "المقاومة الصامتة" أو "السياسة اليومية everyday) " (politicsلتحليل كيفية تفاوض الأفراد على البقاء داخل واقع غير عادل، وهو ما يتقاطع مع ما صوّره وايت من قدرة الأفراد على ابتكار آليات للتماسك والهيمنة داخل الهامش، عبر شبكات المصلحة والانتماء والتواطؤ الاجتماعي.

ج. الهوية والهامش: من الوصم إلى إعادة التمركز

يرصد وايت كيف يتحول الحي إلى رمز للهوية والانتماء، وهي فكرة يمكن إسقاطها على المجتمعات العربية الهامشية، حيث يتحول الحي إلى "عائلة موسعة"، والهوية تُبنى على الانتماء المكاني، وليس على الانتماء الطبقي فقط، لكن، وعلى عكس السياق الأمريكي حيث يمكن الصعود الطبقي عبر الوساطة السياسية، فإن الحراك الاجتماعي في العالم العربي غالبًا ما يُعاق نتيجة البيروقراطية، والمحسوبية، وانسداد الأفق الاقتصادي .(سليمان، 2014).

خاتمة عامة

يصل هذا الكتاب إلى محطته الأخيرة، بعد رحلة عبر أبرز المدارس والدراسات السوسيولوجية التي وضعت اللبنات الأساسية لفهم المؤسسة والمجتمع والذات، ولقد عبرنا من خلال نصوص نقدية، وتحليلات ميدانية، ومقاربات تفسيرية، لتاريخ غني ومعقد لعلم الاجتماع، لا باعتباره علما قائما على التراكم فحسب، بل كحقل معرفي متجدد، يعيد مساءلة الواقع في كل لحظة.

ما بين مدرسة شيكاغو، ودراسة "الفلاح البولندي"، و"ميدلتاون"، و"يانكي سيتي"، و"الجندي الأمريكي"، و"مجتمع النواصي"، و"أطروحة ميردال"، و"نظرية ثقافة الفقر"، و"هوارد بيكر"، و"إرفينغ غوفمان"، وغيرها من المحطات، يتضح أن علم الاجتماع لا يزال قادرا على الإنصات لصوت المهمّشين، وفهم البنيات الخفية، وتحليل أنساق السلطة، واستكشاف الديناميكيات المعقدة للمجتمع المعاصر.

إن هذه النماذج، على اختلاف منطلقاتها، تتشارك جميعا في رسالتها الكامنة: أن الإنسان ليس مجرد كائن داخل بنية، بل هو فاعل اجتماعي، منتِج للمعنى، ومتورط في شبكة من الرموز والعلاقات التي تعيد تشكيل ذاته وعالمه.

ختاما، نأمل أن يشكل هذا الكتاب أداة مرجعية للباحثين، ودعامة معرفية للطلبة، ومنصة حوارية للمهتمين بالتحليل السوسيولوجي المعمق، فالتفكير في المجتمع هو، في جوهره، تفكير في إمكان تغييره.

قائمة المصادروالمراجع

1. آدامسون، جون .(2018)مدرسة شيغاكو وتطور علم الاجتماع: من توماس إلى غوفمان. دار العلم، نيويورك.
2. بلكين، أحمد. (2020). السوسيولوجيا: تطورها ومراحلها. مجلة الدراسات الاجتماعية، 15(3)، 45-63.
3. بيرجيس، إرفينغ، وبارك، روبرت. (1921). مقدمة لعلم السوسيولوجيا. شيغاكو: جامعة شيغاكو.
4. بيكر، هارولد .(1986)المنهج السوسيولوجي في شيغاكو: دراسات تطبيقية في العمل الميداني. جامعة شيغاكو للنشر، شيغاكو.
5. بوشناق، عيسى. (2006). الانتحار كظاهرة اجتماعية في المجتمع الجزائري. مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، (15)، 87–104.
6. جبر، عبد الله نادية. (2004). الفقر وطرق قياسه: الاتجاهات النظرية والمنهجية. دار فرجة للنشر.
7. الكنز، عبد القادر. (1993). التحول الاجتماعي والهوية في الجزائر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
8. الجبوري، سامي. (2022). السوسيولوجيا الأمريكية والتفاعلية الرمزية. دار الثقافة.
9. الجوهري، محمد محمود. (2021). أسس البحث الاجتماعي. (ص. 329.(
10. الجوهري، محمد. (2005). علم الاجتماع التطبيقي. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
11. الجوهري، محمد. (2010). أسس البحث الاجتماعي. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
12. الجوهري، محمد. (2021). تحليل الأزمة الأمريكية: رؤية سوسيولوجية. القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.
13. الخشاب، مصطفى. (1976). علم الاجتماع الحضري: المفاهيم والممارسات. القاهرة: دار المعرفة.
14. رشوان، حسين عبد الحميد أحمد. (2007). الفقر والمجتمع: دراسة في علم الاجتماع. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
15. سميث، ريتشارد .(2021)التجديد السوسيولوجي في مدرسة شيغاكو: قراءة نقدية. دار البحوث الاجتماعية، بوسطن.
16. علام، عبد الباسط. (1994). السلوك التنظيمي. القاهرة: دار الفكر العربي.

17. عمر، مصطفى. (1992). مسيرة تحديث المجتمع الليبي. معهد الإنماء العربي للدراسات الاجتماعية، بيروت.
18. غوفمان، إيرفنج .(2003)السلوك الاجتماعي والتفاعل في الحياة اليومية. دار النشر الأكاديمية، باريس.
19. فينيغان، مايكل .(2019)الإثنوميتودولوجيا وتفاعلية الرمزية: نشوء الأفكار في مدرسة شيغاكو. جامعة كامبريدج، كامبريدج.
20. الكردي، محمود. (1977). الإيكولوجيا البشرية: مفهومها وتطبيقاتها في المجتمعات الحضرية. بيروت: دار الكتاب.
21. كرنفينل، أندرو .(2017)الأدوات البحثية السوسيولوجية في مدرسة شيغاكو. دار الفكر السوسيولوجي، لندن.
22. كينغ، جون .(2020)إسهامات مدرسة شيغاكو في السوسيولوجيا المعاصرة. مطبعة أكسفورد، أكسفورد.
23. الديوان الوطني للإحصائيات. (2021 .(*إحصائيات حول أسباب الوفاة في الجزائر* .الجزائر: الديوان الوطني للإحصائيات.
24. Abbott, Andrew. (2001). *Time matters: On theory and method*. University of Chicago Press. United States.
25. Bellah, Robert N., Madsen, Richard, Sullivan, William M., Swidler, Ann, & Tipton, Stephen M. (1985). *Habits of the heart: Individualism and commitment in American life*. University of California Press. United States.
26. Blumer, Herbert. (1969). *Symbolic interactionism: Perspective and method*. University of California Press. United States.
27. Bourdieu, Pierre. (1984). *Distinction: A social critique of the judgement of taste*. Harvard University Press. United States.
28. Bauman, Zygmunt. (2000). Liquid modernity. Cambridge: Polity Press.
29. Blumer, Herbert. (1969). Symbolic interactionism: Perspective and method. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
30. Creswell, John W. (2014). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches* (4th ed.). SAGE Publications. United States.

31. Creswell, John W., & Poth, Cheryl N. (2018). *Qualitative inquiry and research design: Choosing among five approaches* (4th ed.). SAGE Publications. United States.
32. Denzin, Norman K., & Lincoln, Yvonna S. (Eds.). (2018). *The SAGE handbook of qualitative research* (5th ed.). SAGE Publications. United States.
33. Douglas, Jack D. (1967). The social meanings of suicide. Princeton, NJ: Princeton University Press.
34. Durkheim, Émile. (2002). Suicide: A study in sociology (John A. Spaulding & George Simpson, Trans.). London: Routledge. (Original work published 1897)
35. Giddens, Anthony. (2006). *Sociology* (5th ed.). Polity Press. United Kingdom.
36. Harvey, David. (2010). *The enigma of capital and the crises of capitalism*. Profile Books. United Kingdom.
37. Henslin, James M. (2021). *Essentials of sociology: A down-to-earth approach* (13th ed.). Pearson. United States.
38. Lynd, Robert S., & Lynd, Helen M. (1929). *Middletown: A study in modern American culture*. Harcourt, Brace and World. United States.
39. Lynd, Robert S., & Lynd, Helen M. (1937). *Middletown in transition: A study in cultural conflicts*. Harcourt, Brace and Company. United States.
40. Mills, Charles Wright. (2002). *The power elite*. Oxford University Press. United Kingdom.
41. Putnam, Robert D. (2000). *Bowling alone: The collapse and revival of American community*. Simon & Schuster. United States.
42. Swedberg, Richard. (2020). *The art of social theory*. Princeton University Press. United States.
43. Whyte, William F. (1943). *Street corner society: The social structure of an Italian slum*. University of Chicago Press. United States.